
روايات مصرية للجيب
3
حرب الجواسيس
د. نبيل فاروق
Looloo
www.dvd4arab.com
قلب العدو
ومواضيعات أخرى

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حـــروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنـــهارًا .

ولكـــن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بـــها سوى أصحابـــها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق



محيط الدم

(قصة واقعية)

لم تكد الشمس تشرق ، فى صباح ذلك اليوم ، من بدايات عام ١٩٤٣م ، ذروة الحرب العالمية الثانية ، حتى انعكست أشعتها الذهبية على جسم المدمرة الألمانية الجديدة ، التى دخلت الخدمة منذ ثلاثة أشهر فحسب ؛ لتكبِّد الأسطول البريطانى والأمريكى وغواصاتهما أكبر قدر من الخسائر ، منذ تلك الضربة اليابانية المباغتة ، لميناء (بيرل هاربور) ..

ففى شموخ وقوة ، راحت المدمرة الألمانية تمخر عباب المحيط ، وعلى متنها ذلك الجهاز الجديد ، الذى ابتكرته العقول الألمانية فى ذلك الحين ، والذى يمتلك قدرة مدهشة ، على كشف حركة الغواصات المعادية ، فى دائرة واسعة حولها ، وربما لأوّل مرة فى تاريخ حروب البحار والمحيطات ..

وبالنسبة لتلك الفترة ، فى النصف الأوّل من الأربعينات ، كان جهاز كهذا يعتبر معجزة فى مضمار القتال البحرى ، الذى بلغ أوجه فى تلك المرحلة الحرجة من الحرب ؛ إذ كان ابتكاره بداية لتدمير عدد لا بأس به من الغوّاصات البريطانية والأمريكية ، وإنقاذ عدد مدهش من المدمرات الألمانية واليابانية ، على نحو لم يسبق له مثيل ..

وفى ذلك اليوم بالتحديد ، كانت المدمرة الألمانية تشق طريقها نحو منطقة قريبة من الساحل البريطانى الغربى ؛ حيث تجمّعت بضع غوّاصات بريطانية أمريكية ، استعدادًا للانطلاق نحو أهداف ألمانية ويابانية جديدة ، كما أكّدت البرقية الشفرية السرية ، التى أرسلها جاسوس ألمانى رفيع المستوى ، فى قلب القيادة الحربية المشتركة فى (لندن) ..

ولأن الغنيمة كانت ضخمة ، على نحو يسيل له اللعاب ، راح ضباط المدمرة النازية يبدءون استعداداتهم المكثفة ، قبل حتى الوصول إلى منطقة الهدف ، وأخذ القبطان يلقى أوامره هنا وهناك ، و ...

وفجأة ، لمح أحد الضباط الجندى (رالف) ، وهو منهمك فى عمل ما ، عند مؤخرة المدمرة ، فصاح به فى صرامة :

- (رالف) .. ماذا تفعل هنا بالضبط ؟!

وحسبما جرت العادة ، كان ينبغى أن ينهض (رالف) هذا فى سرعة ، وأن يرفع يده بالتحية النازية ، وهو يضرب كعبيه بعضهما ببعض فى قوة ؛ ليفسِّر لضابطه ما كان يفعله هناك ، فى ركن المؤخرة ..

ولكن العجيب أن (رالف) قد واصل عمله بسرعة

أكبر ، دون أن يلتفت لضابطه ، أو يوليه أدنى اهتمام ، مما أثار غضب الضابط ، وجعله يندفع نحوه ، صائحًا فى ثورة :

- انهض وأجب أيها الجندى .

واصل (رالف) عمله لثوان إضافية ، على الرغم من ثورة ضابطه ، ثم لم يلبث أن نهض فى هدوء مستفز ، قائلاً :

- لا بأس أيها الضابط .. لقد أنهيت عملى هنا .

لم يكن من المعتاد أن يخاطب جندى بحرى ملتزم ، فى البحرية النازية ، ضابطه الأكبر على هذا النحو المستهتر ؛ لذا فقد صاح فيه الضابط فى حدة شديدة :

- قف بانضباط ، وأد التحية جيدًا أيها الجندى .

ولكن (رالف) لم يقف بالانضباط العسكرى اللازم ..

بل ولم يحاول حتى هذا ..

والأدهى أنه قد قام بعمل عجيب ، يعدّ فضيحة فى أى نظام عسكرى ؛ إذ خلع قبعته أمام ضابطه ، وابتسم فى سخرية ، قائلاً :

- لا داعى لكل هذا .. لقد انتهت مهمتى هنا .

وقبل حتى أن يرفع حاجبيه ، من فرط الدهشة ، فوجئ الضابط النازى بالجندى (رالف) يقدم على ثالث عمل مستفز ..

بل ثالث عمل جنونى تمامًا ..

لقد اندفع نحو حاجز المدمرة ، ثم وثب عبره ؛ ليقفز إلى مياه المحيط ، ويغوص فيها فى سرعة ..

ووفقًا للنظم البحرية ، كان ينبغى أن يصرخ الضابط بكل قوته :

- رجل فى البحر .

ولكن الضابط النازى لم يفعلها ؛ إذ اتسعت عيناه عن آخرهما وهو يحدّق فيما تركه (رالف) خلفه ، بكل ذهول وذعر الدنيا ..

ففى تلك اللحظة فقط ، أدرك الألمانى أن من كان أمامه ليس حتمًا أحد جنود الأسطول النازى ..

بل وليس حتى ألمانيًا ..

ليس لأن (رالف) قد أطلق عبارة إنجليزية ساخرة ، وهو يقفز إلى المحيط ، ولكن لأن ما فعله عند مؤخرة المدمرة ، وما تركه خلفه هناك كان رهيبًا ..

رهيبًا بحق ..

* * *

منذ بدأت الحرب العالمية الثانية ، اشتبكت أساطيل الدول المتحاربة فى معركة عنيفة ، ربما لم يشهد العالم مثيلاً بحريًا لها ، فى تاريخه كله ..

معركة سعى كل طرف فيها للسيطرة على البحار والمحيطات ، وتحجيم قدرة الخصم على التحرك فيهما بحرية ؛ باعتبار أن النقل البحرى هو الوسيلة الرئيسية ، التى كانت متاحة ـ آنذاك ـ لنقل الأسلحة والمعدات الثقيلة ، من مصانعها فى الولايات المتحدة الأمريكية ، وحتى الجزر البريطانية ، التى تنقلها بدورها ، عبر المسارات البحرية أيضًا ، لجنودها الذين يحاربون فى قلب (أوروبا) و(آسيا) ، و(إفريقيا) أيضًا ..

ومع ضربة (بيرل هاربور) ، ودخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى الحرب بثقلها كله ، أصبحت المسارات المائية هى وسيلة نقل الجنود أيضًا ، إلى ساحات المعارك الرئيسية ..

لذا ، كانت مهمة الأسطولين ، اليابانى والألمانى ، هى منع وصول الأسلحة والذخائر والمعدات والجنود المعارين ..

وبأى ثمن ..

وكانت الحرب عنيفة إلى أقصى حد ..

المدمرات والغواصات ، اليابانية والألمانية ، تسعى بكل قوتها وكل ثقلها لإغراق حاملات الجنود والطائرات والمعدات ، فى حين تسعى قطع الأسطول البريطانية والأمريكية لإغراق المدمرات اليابانية والألمانية ، قبل أن تنفذ مهمتها ..

ولفترة ما ، بدا وكأن مصير الحرب كلها يتوقَّف على الانتصار فى المعركة البحرية بالتحديد ، وخاصة بعد أن بلغت خسائر الطرفين حدًّا رهيبًا ، أصبح يهدِّد بدمار شامل .. وفى تلك المعركة البحرية ، كانت الغوَّاصات هى السلاح الأكثر خطورة وفاعلية بلا منازع ؛ إذ إنها تتسلَّل تحت سطح الماء ، ويمكنها الاقتراب فى سرية ، حتى مجال رمايتها ، ثم إطلاق طوربيداتها على مدمرات الخصم ، فى غفلة منه ..

لذا فقد أصبح الشغل الشاغل للطرفين هو تطوير الغواصات ، ورفع قدرتها على الأداء ، ومضاعفة قدرات الطوربيدات التدميرية ، و ...

ولكن الألمان كان لهم مسار آخر ..

مسار أكثر عبقرية ..

لقد جندوا علماءهم وعقولهم كلها ، للفوز بهدف آخر ، ألا وهو القدرة على رصد غوّاصات الخصم ، قبل أن تبلغ مدى الرماية المنشود ..

ومن واحدة من أعظم روايات الخيال العلمى على الإطلاق ، الاوهى رواية (عشرون ألف فرسخ تحت الماء) ، للكاتب المبدع (جولى فيرن) ، استقى العلماء الألمان فكرة جهاز رصد الأعماق ..

وبدءوا فى تنفيذه ..

ثم انتقلوا إلى مرحلة التجريب ..

وطوال شهر كامل ، لاحظ البريطانيون والأمريكيون أن قدرة الألمان على رصد غواصاتهم تجاوزت كل الحدود المنطقية ، وأنهم لا يكتفون بكشف أمرها ، قبل أن تبلغ المدى اللازم لتدميرها فحسب ، بل إنها ترشد طائراتها إليها أيضًا ، فتتجه نحوها مباشرة ، وكأنها تعرف موضعها جيدًا ، وتقصفها بقنابل الأعماق ؛ حتى تنسفها نسفًا ..

وبهذا ارتفعت خسائر الغوّاصات الأمريكية والبريطانية ، إلى حد مخيف ..

وكما يحدث فى مثل هذه الظروف ، بدأت المخابرات البريطانية فى دراسة الأمر ، ورصده عن قرب ، من خلال عملائها فى قلب (ألمانيا) ..

ولأنها كانت متوغلة فى العمق النازى بحق ، حصلت المخابرات البريطانية على أجوبة أسئلتها ، خلال أسبوع واحد فحسب ..

وأدركت أنها تواجه خطرًا داهمًا ..

وهنا كان من الضرورى ، بل من المحتَّم ، أن يجتمع رجالها ، للبحث عن حل لهذه المواجهة الجديدة ، التى تسيَّدت فيها البحرية الألمانية عرش البحار والمحيطات ..

كان الألمان يعملون على تطوير جهازهم الجديد ، فى سرعة مدهشة ، بعد أن زوَّدوا واحدة من أقوى وأسرع مدمراتهم بالنموذج الأوَّل منه ، والذى حقَّق بالفعل نجاحات واضحة ، خلال ما يزيد على الشهر ، وكان على البريطانيين أن يعملوا بأقصى سرعة ، وفى ثلاثة محاور فى آن واحد ..

المحور الأوَّل هو تدمير جهاز رصد الأعماق ، الذى تحمله المدمرة الألمانية ، والمحور الثانى هو منع تطوير الجهاز ، فى وقتهم على الأقل ، والثالث ، والذى اعتبرته

المخابرات البريطانية أخطر وأهم المحاور ، كان الحصول على تصميمات الجهاز ؛ لإنتاج سلاح مماثل ، والسعى لإيجاد وسائل مضادة له ، فى الوقت ذاته ..

ومن أجل تلك الأهداف الثلاثة ، اجتمع رجال المخابرات البريطانية لثلاثة أيام متوالية ، لم يتذوّقوا خلالها إلا القدر الأدنى من النوم ، الذى يبقيهم على درجة مناسبة من الوعى ، تكفى لوضع خطة شديدة التعقيد ..

والواقع أن اجتماعهم الطويل هذا كان مثمرًا بحق ؛ إذ أسفر عن خطة مدهشة لتحقيق الأهداف الثلاثة ، فى ضربة واحدة تقريبًا ..

ومن الواضح أن الجزء الخاص بمنع تطوير الجهاز ، والحصول على تصميماته الرئيسية ، كان عبقريًا وفريدًا بحق ؛ إذ خضع نشر وثائقه لبند السرية البالغة ، الذى لا يتيح كشف الأوراق ، قبل مرور خمسة وسبعين عامًا على نهاية الحرب العالمية الثانية ، وهو أقصى قدر مسموح به ، فى قانون الوثائق البريطانى ..

باختصار ، لن يمكننا معرفة ما تم بشأن المحورين ، الثانى والثالث ، قبل عام ٢٠١٥م .. أما بالنسبة للمحور

الخاص بتدمير نسخة جهاز رصد الأعماق ، على متن المدمرة الألمانية ، التى أطلقوا عليها اسم (صائدة الغوّاصات) ، فقد تم نشر وثائقه كاملة ..

والواقع أن البريطانيين قد بذلوا جهدًا بحق ، فى هذه العملية المدهشة ، والتى بدأت ببرقية شفرية ، تم إرسالها إلى واحد من أهم جواسيسهم فى (برلين) ، يطلبون منه فيها أن يمدّهم بالملفات الكاملة لكل طاقم الضباط والبحارة ، الذين يعملون على المدمرة .. (صائدة الغوّاصات) ..

ولقد أدهش ذلك المطلب جاسوسهم ، وأربكه بشدة ، فأبرق إليهم يؤكّد أن كل طاقم المدمرة تم اختياره بعناية فائقة ، وبوساطة رجال (الجستابو) أنفسهم ، وأنه من الخطورة ، كل الخطورة ، بذل أية محاولة لتجنيد أحدهم !

وكالمعتاد ، لم تشرح له المخابرات البريطانية وجهة نظرها أبدًا ، وإنما عادت تبرق إليه بضرورة بذل كل الجهد الممكن ، لتوفير الملفات المطلوبة ، مهما كان الثمن ..

ومن الواضح أن ذلك الجاسوس ، الذى أشارت إليه الوثائق باسم (أليكس) ، وهو ليس اسمه الحقيقى حتمًا ، قد بذل جهدًا خرافيًا ؛ ليرسل إليهم صورة من تلك الملفات ،

عبر عميل آخر سويسرى الجنسية ، أطلقت عليه الوثائق اسم (شبح برن) ، ربما لأهميته وخطورته فى ذلك الحين ..

المهم أن الملفات قد وصلت إلى المخابرات البريطانية ، التى قضى رجالها ليلة بأكملها ، فى مراجعة صور أفراد الطاقم ، وصور رجال مخابراتهم هم ، قبل أن يقع اختيارهم على جندى بروسى المولد ، يُدعى (رالف هايدنبرج) ..

وذلك الاختيار لم يعتمد على دراسة عميقة لشخصية (رالف) ، أو حتى تحريات مسبقة عنه ، وإنما اعتمد فقط على شكله وملامحه ..

هذا لأن (رالف) كان يشبه إلى حد كبير ، رجلهم (إدوارد ريفز) ، الذى تم اختياره للقيام بالمهمة ، نظرًا للتشابه أيضًا ..

وكان من الضرورى أن يتمّ كل شىء بسرعة ، ودقة ، وحزم ..

وفى منتصف الليلة نفسها ، خضع (إدوارد) لعملية جراحية تجميلية ، الغرض منها تقريب المسافة بين ملامحه ، وملامح (رالف هايدنبرج) ..

وفى صباح اليوم التالى مباشرة ، وبينما رست المدمرة الألمانية ، وخرج بحارتها للتنزه والعبث فى الميناء ، بعد فترة طويلة فى عرض البحار والمحيطات ، كان أحد عملاء المخابرات البريطانية يؤدّى دوره فى الخطة ، دون أن يدرى ما يتجاوز ذلك الدور ، وربما لم يدر ، حتى لحظة وفاته ..

فمع زجاجة خمر ، ووجه محتقن ، وعينين زائغتين ، اعترض العميل طريق (رالف) ، وتحرّش به دون سبب منطقى ، وراح يسب أبويه وأسرته ، وينعته بصفات يندى لها الجبين ، حتى ثارت ثائرة (رالف) ، فانقض عليه للاقتصاص منه ، بكل ما يعتمل فى أعماقه من غضب ثائر ..

وهنا ، ودون أية مقدمات ، نفض العميل البريطانى عن نفسه كل علامات السكر الزائفة ، وتحوّل فى لحظة واحدة إلى مقاتل شرس ، بالغ النشاط والحيوية ، وثب بمنتهى الخفة ؛ ليلكم الألمانى فى أنفه وقاعدة عنقه بمنتهى العنف ..

وفى لحظة واحدة ، اختفى العميل البريطانى ، وترك (رالف) خلفه ، يسعل بشدة ، ويحاول عبثًا منع الدماء ، التى تدفّقت من أنفه المحطّم بغزارة ..

وبسرعة ، تضافر رفاق (رالف) ؛ لنقله إلى أقرب مستشفى ، أو أقرب نقطة إسعاف ؛ حيث تم تضميد إصابة أنفه ، وطمأنه الطبيب بأن تلك الحشرجة فى صوته لن تلبث أن تزول ، عندما تتحسَّن تلك الكدمة الواضحة ، فى قاعدة عنقه .

وعلى الرغم من ضماداته وكدمته ، لم يشأ (رالف) إفساد ليلته ، فعرج مع رفاقه إلى أقرب حانة ؛ ليقضوا سهرتهم حتى الصباح ..

ولأن المدمرة سترحل مرة أخرى ، فى مساء اليوم التالى مباشرة ، كان لابد من تنفيذ الجزء الثانى من الخطة ، دون أدنى إبطاء ، على الرغم من أن جراح عملية (إدوارد) التجميلية لم تلتئم بعد ..

وكان على (إدوارد) ، الذى خرج من حجرة العمليات ، منذ ساعات قليلة ، أن يقطع رحلة طويلة ، عبر بحر (المانش) ، حتى يبلغ الميناء الفرنسى ، الذى ترسو عنده المدمرة الألمانية ، قبل مطلع الفجر ..

والمدهش أن عملية الاستبدال لم تكن صعبة أو مرهقة

أبدًا ؛ إذ كان (رالف) ورفاقه شبه فاقدى الوعى ، عندما وصل فريق المخابرات إليهم مع (إدوارد) ، فى الخامسة وسبع دقائق فجرًا ..

وبكل بساطة ، ووسط كومة من شهود الإثبات والأصدقاء ورفاق السلاح ، عاد (رالف) إلى المدمرة الألمانية ؛ ليقدِّم تقريرًا عما أصابه فى الميناء ..

وعندما تم التأكُّد من اكتمال العمل ، وأقلعت المدمرة النازية ؛ لتواصل رحلة صيد غوَّاصات الأمريكيين والبريطانيين ، كان تغييرًا أساسيًّا قد حدث ، دون أن ينتبه إليه شخص واحد على سطحها ..

لقد استبدل بـ (رالف) الألمانى النازى الوطنى ، البريطانى (إدوارد) ، الذى أصبح نسخة طبق الأصل منه ، مع الضمادات على أنفه ، والكدمة فى قاعدة عنقه ، وذلك الصوت المتحشرج الأجش ، الذى لايشبه صوت أحدهما على الإطلاق ..

وفور إقلاع المدمرة ، بدأ (رالف) المزيف رحلة البحث عن جهاز رصد الأعماق ..

ومع توسُّط الشمس لكبد السماء ، بلغ هدفه ، وحدَّد موقعه ، وراجع خطته ، واستعدّ لخطة العمل المتفق عليها ..

وفى تلك الليلة ، نام (إدوارد) ملء جفنيه ، وسط جنود ألمان ، يؤمنون كل الإيمان بالفكر النازى ، وحتمية سحق كل من يعاديه ..

باختصار ، نام وسط أعداء ، يكفى كشف هفوة واحدة منه ، لينقضوا عليه ، ويمزقوه إربًا فى لحظات ، دون أن يطرف لهم جفن ..

ومع نوبة الاستيقاظ الصباحية ، بدأ (رالف) الزائف عمله على الفور ..

وفى نقطة تعلو تلك الحجرة ، التى تحوى جهاز رصد الأعماق ، زرع المتفجرات ، التى تم إخفاؤها بمنتهى العناية فى حذائه ، و ...

ولكن ذلك الضابط النازى كشف أمره ..

وعلى الرغم من صراخ الضابط الألمانى ووعيده ، أكمل (رالف) عمله ، ثم هَبَّ يلقى نفسه فى مياه المحيط ..

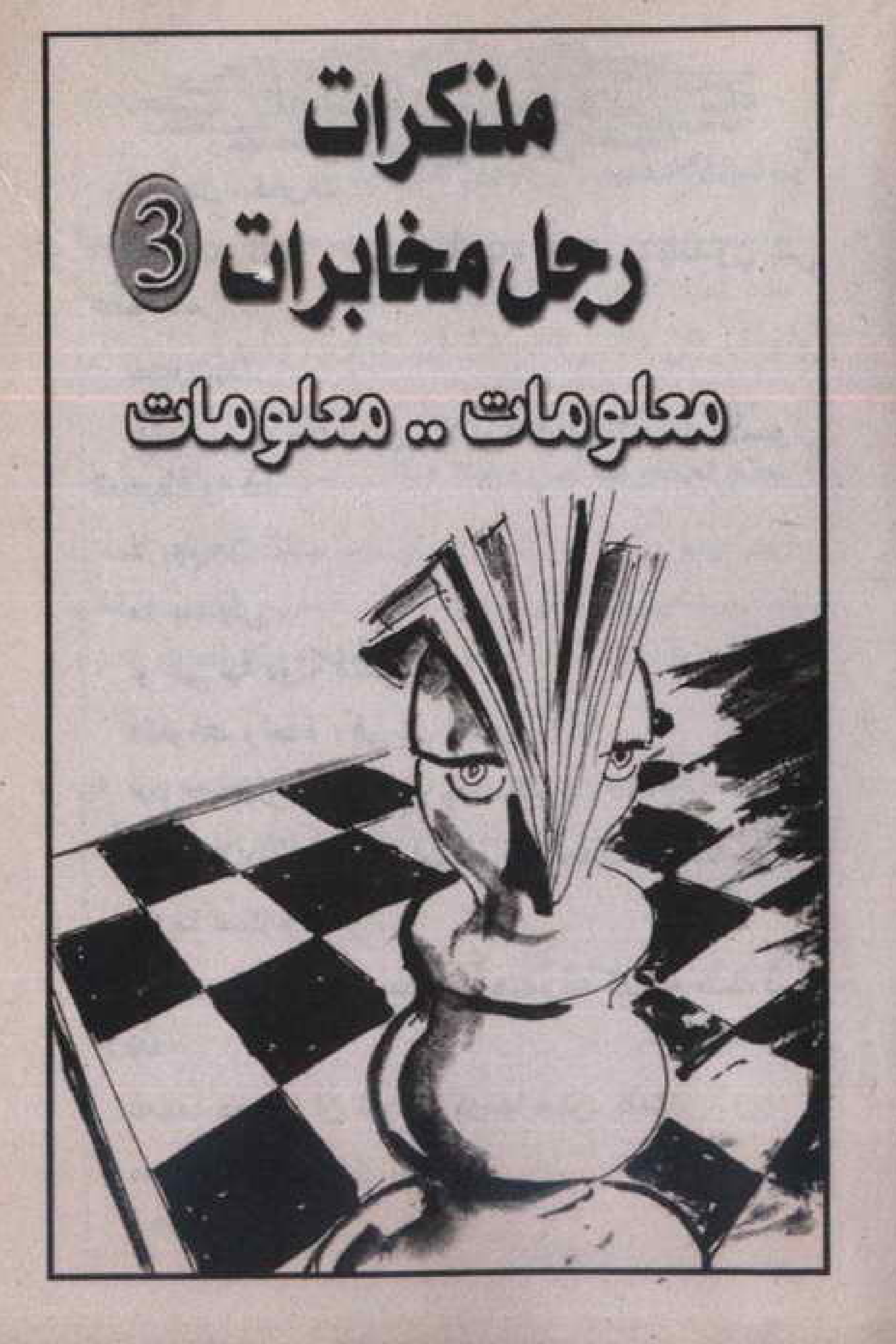
ولثوان ، حدَّق الضابط النازى فى المتفجرات ، التى تركها (رالف) خلفه ، قبل أن يصرخ بكل قوته :

ـ قنبلةَ على السطح ..

ولكن صرخته لم تكتمل أبدًا ؛ فقد قاطعها انفجار مدوٍّ ، نسف مؤخرة المدمرة ، ودفتها الرئيسية ، وجزءًا من سطحها ، يطلّ مباشرة على جهاز رصد الأعماق ..

ومع دوى الانفجار ، اندفعت الغوّاصات الأمريكية والبريطانية نحو المدمرة ، وكأنما كان الانفجار إشارتها للهجوم ، واستغلّت التلف الجزئى ، الذى أصاب جهاز الرصد ، لتطلق طوربيداتها نحوها فى آن واحد ..

وكانت أسرع مدمرة تغرق ، فى تاريخ الحرب العالمية الثانية كلها ، بعد أن حولّتها الطوربيدات إلى أشلاء متناثرة ..



وقبل حتى أن تصل الطائرات الألمانية ، كانت إحدى الغواصات البريطانية قد التقطت (إدوارد) ، وانطلقت عائدة به إلى الوطن ..

وهكذا وصلت المقاتلات الألمانية ؛ لتجد أمامها محيطًا تسبح فيه جثث أفراد طاقم المدمرة ، التى غاصت بجهاز الرصد إلى الأعماق كالحجر ..

محيط من الدم .. والهزيمة ..

بلا حدود .

* * *

مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًّا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصوَّر حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجرَّد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

٣ـ معلومات .. معلومات ..

منذ انتهت دورتى التدريبية ، فى مدرسة المخابرات ، وعودتى إلى مكتبى الصغير فى الإدارة ، وقر فى أعماقى أمر ، يخالف كل ما كنت أتصوَّره من قبل ..

فعالم المخابرات ليس سهلاً أبدًا ..

ربما يبدو مثيرًا من الخارج ، ومغريًا بالبحث والدراسة ، ولكنه ـ كأى علم آخر ـ يمنحك فى البداية شعورًا زائفًا بالمعرفة ، عندما تكشف مفاتيحه الأوَّلية ، وتعرف قواعده الأساسية ..

فى تلك المرحلة الأوَّلية تبدأ فى التباهى بنفسك ، والزهو بأعماقك ، والادعاء فى داخلك بأنك قد صرت خبيرًا فى مضمارك ..

ثم تتلقَّى معلومات أكثر ..

ومعارف أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وعندئذ تدرك الحقيقة ..

تدرك أن كل ما تعرفه ليس سوى قطرة فى بحر ..

بحر المعلومات ..

تمامًا كالشطرنج ..

من السهل أن تعرف قواعده وأساسياته ..

ومن العسير جدًّا أن تبرز وتتفوّق فيه ..

هذا يحتاج إلى سنوات وسنوات ، من الخبرة ، والمران .. والمواجهة ..

وكلما ربحت مباراة ، تدرك أكثر أنك كنت مجرّد مشاهد من قبل ..

مشاهد يحفظ القواعد فحسب ..

ولأننى قد أدركت هذا مبكرًا ـ لحسن الحظ ـ فقد شعرت بنهم شديد إلى المعرفة والمعلومات ، ورحت أتساءل : كيف يمكننى الحصول على المزيد منها ، و ...

« هل يمكننى الدخول ؟! »

انطلق السؤال فى مرح واضح ، فى نفس اللحظة التى عبر فيها عريض المنكبين باب حجرة مكتبى ، وألقى جسده على المقعد المواجه لمكتبى ، مستطردًا بابتسامة كبيرة :

ـ أم أننى قد دخلت بالفعل .

كان أسلوبه هذا يستفزّنى لسبب ما .. ربما لتعارضه تمامًا مع طبيعة شخصيتى الرصينة ، لذا فقد أجبت فى هدوء متزن :

ـ تفضّل ، على الرحب والسعة .

مال نحوى ، وغمز بعينه ، متسائلاً :

ـ كيف حال تلميذنا الصغير ؟! سمعت أنك قد اجتزت دورتك الدراسية بتفوق ، وناظر المدرسة يمتدح نشاطك وذكاءك بحق .

كان من الواضح أن أسلوبه قد ضايقنى إلى حد ما ، وأنا أقول فى اقتضاب :

ـ عظيم .

تراجع مطلقًا ضحكة مرحة ، قبل أن يلوّح بسبّابته ، قائلاً :

ـ لو أردت نصيحتى يا صديقى ، فاطرح عن ذهنك هذا التزمُّت العسكرى ، واندمج فى عالمنا هذا .

قلت فى حزم :

ـ كنت أظن أن الرصانة هى أساس عمل المخابرات .

هزّ رأسه نفيًا فى بطء ، قبل أن يتطلّع إلى عينىّ مباشرة ، ويقول بابتسامته الكبيرة :

ـ عملنا لا صلة له بالرصانة أو المرح يا صديقى .. عش كما يحلو لك ، ما دام ما تفعله ينعش آلتك الرئيسية .

أطلَّ التساؤل من عينىَّ ، فمال نحوى ، وأكمل ، مشيرًا إلى رأسه :

ـ هذه .

شملنا الصمت بضعِ لحظات ، بعد أن نطق عبارته الأخيرة هذه ، وكلانا يتطلع إلى عينى الآخر مباشرة ، قبل أن يعتدل هو فى مقعده ، ويسألنى فى جدية ، لا تتفق مع طبيعته المرحة :

ـ ما الذى يقلقك بالضبط ؟!

لم أعتد أبدًا الإفصاح عن مشاعرى للآخرين ، وعلى الرغم من هذا ، فقد وجدت نفسى أجيبه فى بساطة :

ـ ما زال ينقصنى الكثير ؟!

هزَّ كتفيه ، قائلاً :

ـ هذا أمر طبيعى .. لقد بدأت عملك بصعوبة .

كررت فى توتر :

ـ ما زال ينقصنى الكثير ، حتى أبدأ عملى ، على نحو جيِّد .

سألنى فى اهتمام :

ـ ما الذى ينقصك بالضبط ؟!

أجبته فى سرعة ، وكأننى كنت أنتظر سؤاله فى شغف :

ـ المعلومات .

كنت أتصوَّر أن جوابى سيدهشه ، أو سيثير تعجُّبه أو استنكاره ، إلا أننى فوجئت به يستعيد ابتسامته العريضة ، وهو يقول :

ـ أمر طبيعى .

ثم نهض من مقعده فجأة ، مضيفًا :

ـ اترك لى هذا الأمر .

سألته فى شىء من اللهفة :

ـ وماذا يمكنك أن تفعل ، فى هذا الشأن ؟!

أطلق ضحكة مرحة ، وهو يندفع نحو الباب ، مجيبًا :

ـ سترى .

تابعته ببصرى ، وهو يغادر الحجرة ، قبل أن أتراجع فى مقعدى ، متسائلاً فى أعماقى ، فى قلق عارم : أكان من المنطقى أن أتحدَّث إليه ، فى هذا الشأن ؟!

ثم كرَّرت فى أعماقى السؤال ذاته ..

ما الذى يمكنه أن يفعله ؟!

لقد تعلمنا ، فى مدرسة المخابرات ، أن إحدى القواعد الأساسية ، فى عالم المخابرات ، هى « المعرفة بقدر الحاجة .. »

وهذه قاعدة تبدأ مع كل عملية ..

فالكل ، فى أثناء العملية ، هم قطع فى لوحة شطرنج ، يحركها لاعب ماهر ، بخطة مسبقة ، تم تحديد هدفها مسبقًا ، ولكن خطواتها تتحدَّد وتتطوَّر ، مع تحركات قطع الخصم ..

وفى اللعبة ، لا يعرف كل المعلومات سوى اللاعب وحده ، أما قطع الشطرنج ، فكل منها لا يعرف سوى ما يخص دوره فحسب ..

ومن هنا ، أتت العبارة .. (المعرفة بقدر الحاجة) ..

وأنا أدرك الحكمة من هذا جيدًا ..

فالعمل خلال الخطة ، يدور فى إطار من السرية التامة ؛ حتى لا يعرف الخصم تحركاتك القادمة مسبقًا ، فيستعد لمواجهتها ، أو ضربها عند اللزوم ..

والسرية التامة تستلزم ألا يتجاوز السر عقل صاحبه فحسب ..

هو وحده يمتلك كل المعرفة ..

ويشارك فيها معاونيه ومستشاريه فحسب ..

أما الأفراد ، أو قطع الشطرنج ، فمعارفهم لابد أن تكون محدودة بأدوارهم ؛ حتى لا ينكشف السر أو ينتشر ..

بل إن بعضهم لا يعلم حتى لماذا يقوم بهذا الدور ..

أو ما الهدف منه ..

ولكنه ينفذه فحسب ..

وبمنتهى الدقة ..

ومنتهى الأمانة ..

وهذا لا يتنافى مع ضرورة أن يعرف كل فرد كل المعلومات ، التى تساعده على القيام بدوره ، على أكمل وجه ممكن ..

ولكن دون معرفة زائدة ..

باختصار ، على كل فرد معرفة ما يفيده ، دون أدنى زيادة أو نقصان ..

وكما ترون ، فهذه عملية بالغة الدقة ، ولا يقدر على

إدارتها بنجاح ، سوى لاعب ماهر ، خبير ، محنك ، برتبة ضابط ..

ضابط مخابرات ..

وتصحيحًا لمعلومة خاطئة سائدة ، لا يعمل ضابط المخابرات وحده أبدًا ؛ فعندما نقول : إنه يتولَّى عملية ما ، فهذا يعنى أنه يرأس فريقًا من المفكرين ، والمخططين ، والمستشارين ، والخبراء ؛ لأنه لا يمكن لعقل واحد أن يدير لعبة متكاملة ..

الخصم يدير عملياته بفريق من الخبراء ، ولابد من أن تتصدَّى له بفريق آخر من الخبراء .. هذا لأنه من المستحيل أن يهبط لاعب واحد ، مهما بلغت براعته ، إلى ملعب كرة قدم ، ليواجه الفريق الخصم بأكمله ، ثم يكون المطلوب منه أن يحرز أهدافًا أيضًا !!

من المستحيل تمامًا !!

هذا ألف باء عمل المخابرات ، كما تعلمته على أيدى خبراء ..

انتزعنى فجأة ، من أفكارى هذه ، صوت طرقات رصينة على الباب ، فرفعت رأسى ، قائلاً فى آلية :

– ادخل .

لم أكد أنطقها ، حتى شعرت بشىء من الحنق ؛ لأننى لم أتبع القواعد ، التى تحتم السؤال عن الطارق أولاً ، وصرخت فى أعماقى أنه من الضرورى أن أنتبه إلى هذا ، فى المرة القادمة ..

ولكننى لم أستغرق طويلاً ، فى حالة اللوم الذاتى هذه ؛ إذ انفتح باب مكتبى الصغير فى هدوء ، وظهر على عتبته وجه القنفذ ، برصانته المعتادة ، وصوته الرفيع ، وهو يقول :

– أخبرونى أنك تريدنى يا سيِّدى .

انفرجت شفتاى ؛ لإنكار هذا واستنكاره ، وسؤاله عمن أبلغه به ، لولا أن استدرك فى سرعة :

– بشأن المعلومات .

وعندئذ فهمت على الفور ..

إنه عريض المنكبين ..

وهذا ما فعله ..

لقد أرسل إلىَّ وجه القنفذ ، لسبب ما ..

سبب جعلنى أسأله فى اهتمام :

– وهل يمكنك أن تفيدنى فى هذا الشأن ؟!

أجابنى فى هدوء رصين ، وهو يدلف إلى المكتب :

ـ بالتأكيد .

يومها عرفت الكثير عن العالم المحيط بى فى الإدارة ..

عرفت أن وجه القنفذ هذا شخصية مدهشة بحق ، وتدعو إلى الاحترام ، إلى أقصى حد ممكن ..

إنه أرشيف حى ، يحمل فى عقله ، وأعماقه ، وكل ذرة فى كيانه ، كمًّا هائلاً من المعلومات ، عن عالم المخابرات ، وتاريخه ، وعملياته ، وأسراره المدهشة ..

ثم إنه يمتلك أسلوبًا سلسًا جذابًا ، وهو يروى عملية مخابرات قديمة ، أو يشرح نقطة غامضة ، أو يفسّر خطوة حسمت قضية ما ..

ولساعات طويلة ، لم أشعر بمرورها ، راح عقلى يحتشد بعشرات القصص ، والروايات ، والمعلومات ..

معلومات ..

معلومات ..

معلومات ..

والمدهش أننى لم أشعر قط بالتعب ..

أو الإجهاد ..

أو الملل ..

أو حتى الشبع ..

بل على العكس تمامًا ، لقد تضاعف فهمى للمعرفة والمعلومات أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

والرائع أن وجه القنفذ لم يبد أى ضجر ، أو يعلن تعبه أو إجهاده ..

كان يبدو هادئًا رصينًا كعادته ، ومستعدًا للمضى فى حديثه ، حتى آخر مدى ، لولا أن سمعنا صوت عريض المنكبين ، وهو يقول ضاحكًا :

ـ رويدكما .. المخابرات لن تنتهى الليلة .

انتبهت ، مع كلماته فقط ، إلى أننا قد تجاوزنا ساعات العمل الأساسية بأربع ساعات كاملة ، دون أن ينبهنى وجه القنفذ إلى هذا ، أو يبدى تبرُّمه أو غضبه ؛ بسبب تلك الساعات الإضافية ، التى أجبرته على قضائها

بشغفى الشديد للمعلومات ، واحتملها هو برصانته وشهامته ، وطبيعته المهذَّبة ، التى أكشفها لأوَّل مرة ..

أما عريض المنكبين ، فقد تابع بمرحه المعتاد ، وهو يشير بسبَّابته :

- المعلومات هنا لا حصر لها ، وستظلّ تنهل منها ، حتى آخر لحظة فى حياتك .

وغمز بعينه ، وهو يضيف ضاحكًا :

- ثم إننى قرَّرت أن أدعوك لتناول طعام الغداء ؛ لنتعارف أكثر على الأقل .

نهض وجه القنفذ إثر كلمات عريض المنكبين ، وقال فى هدوء رصينى مهذَّب :

- غدًا نكمل .

ثم استدرك فى سرعة :

- لو أن هذا يناسبك .

نهضت بدورى أصافحه فى حرارة واحترام ، قائلاً :

- يناسبنى بالتأكيد .

اتسعت ابتسامة عريض المنكبين ، وهو يعقد ساعديه أمام صدره القوى ، وظلّ صامتًا ، حتى انصرف وجه القنفذ تمامًا ، فقال ، وهو يغمز بعينه عابثًا فى مرح :

- من الواضح أن الغلاف العسكرى سيذوب بسرعة .

أشرت بيدى ، نحو الباب الذى انصرف منه وجه القنفذ ، وأنا أقول :

- إنه رجل رائع .

فهم عريض المنكبين ما أعنيه على الفور ، فأومأ برأسه موافقًا ، وهو يقول بابتسامة كبيرة :

- بالتأكيد .

سألته فى اهتمام :

- أهو ضابط مخابرات قديم ؟!

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يقول فى بساطة :

- إنه ليس ضابط مخابرات .

اتسعت عيناى فى دهشة ، فأضاف :

- إنه موظف قديم هنا .

هتفت بكل دهشة الدنيا :

ـ موظف ؟!

قال فى بساطة ، وهو يفسح لى الطريق ؛ لنغادر المكتب معًا :

ـ نعم .. موظف مسئول عن أرشيف العمليات ..

ثم ضحك ، مضيفًا :

ـ هل تعتقد أن أجهزة المخابرات تعمل بالضباط وحدهم ؟!

قلت فى انبهار ، ونحن نسير فى ممرات المبنى :

ـ ولكنه يملك قدرًا مدهشًا من المعلومات .

وافقنى بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ نعم .. إننا نعتمد على ذاكرته الأرشيفية المدهشة هذه كثيرًا .

شغلنى التفكير فى هذا الأمر ، طوال طريقنا إلى ذلك المطعم الأنيق الهادئ ، الذى يحتلّ طابقًا كاملاً ، من المبنى الإدارى الثالث ، وما إن جمعتنا مائدة الطعام ، حتى سألت عريض المنكبين فى اهتمام :

ـ ألدينا هنا عدد كبير من الموظفين ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بالطبع .. لدينا موظفون للحسابات ، وشئون الأفراد ، وكل الأعمال الإدارية الأخرى .

ثم ابتسم ، مستطردًا :

ـ حتّى رجال المخابرات ، يحتاجون إلى من يتولّى شئون رواتبهم وأعمالهم يا زميلى .

كدت أهتف بأن هذا أمر طبيعى ، وأعلن دهشتى من أننى لم أنتبه إليه ، إلا أننى اكتفيت بالتراجع فى مقعدى ، وأنا أقول :

ـ بالتأكيد .

تناول عريض المنكبين طعامه فى هدوء ، لا يتناسب مع مرحه ونشاطه المعتادين ، وقال ، وهو يمضغ قطعة من اللحم المشوى :

ـ هل فكّرت ، فى أية مخابرات تنوى أن تبدأ عملك معنا ؟

تساءلت بدهشة عارمة :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟! أهناك مخابرات أخرى هنا ؟!



ابتلع قطعة اللحم المشوى ، ثم ابتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يمسح فمه بمنشفة صغيرة ، ويميل نحوى ، قائلاً :

ـ بالطبع أيها التلميذ الجديد .. هناك نوعان من المخابرات دومًا .

ومع انبهارى الشديد ، رحت أستمع إليه بمنتهى الشغف ..

ورحت أنهل من فيض جديد من المعلومات ..

بلا حدود .

* * *

تابع فى الكتب القادمة

العائلة المسمومة .. (من قصص الصراع العربى الإسرائيلى)

منذ أشرقت شمس الثلاثين من أغسطس ، عام ١٩٧٤م لم يهدأ (أهارون ياريف) المستشار الأمنى لرئيسة الوزراء الإسرائيلية (جولدا مائير) لحظة واحدة ، وهو يعد كل الأوراق والمستندات التى تحتاج إليها رئيسة الوزراء ، فى اجتماع المجلس ، الذى تقرر عقده فى الواحدة ظهرًا ..

كل ماكان ينقصه ، ليتم أوراقه ، هو رسالة لاسلكية ، تحوى بعض المعلومات العسكرية المصرية المهمة ، التى طلبتها رئيسة الوزراء ، والتى وعده مدير المخابرات شخصيًا بإحضارها فى الوقت المناسب ، فور وصولها من (القاهرة) ، عبر جهاز إرسال حديث للغاية ، يبدأ بثه لأول مرة ، على يد واحد من أهم وأخطر عملاء (إسرائيل) فى قلب (مصر) ..

مع مرور الوقت ، واقتراب عقارب الساعة من منتصف النهار ، تضاعف توتر (ياريف) وخاصة عندما اتصلت به (جولدا مائير) وطلبت منه استكمال كل أوراقه ، قبل الواحدة ..

وفى الثانية عشرة والنصف بالضبط ، أبلغه مدير مكتبه أن مدير المخابرات الإسرائيلى وصل بنفسه ، فطلب منه إدخاله على الفور ، واستقبله فى لهفة متوترة ، وهو يهتف :

ـ أهلًا يا رجل .. لماذا تأخر وصول الرسالة كل هذا الوقت ؟

لقد أثرت أعصابى بشدة ! المفترض أن ..

بتر عبارته بغتة ، عندما لمح ذلك التوتر العنيف ، الذى يطل فى إصرار ، فى كل خلجة من خلجات مدير المخابرات الإسرائيلى ، وسأله فى قلق شديد :

ـ ماذا حدث ؟! ألم تصل الرسالة ؟!

تردد مدير المخابرات الإسرائيلى لحظة ، قبل أن يناوله ورقة مطوية ، وهو يُجيب :

ـ الواقع أن الرسالة قد وصلت ، ولكن ليس على النحو الذى كنا نتوقعه .

اختطف (ياريف) الورقة من يده ، وفضها فى سرعة ، وارتجف جسده كله فى عنف ، وهو يقرأ أسطرها القليلة ، قبل أن يترك جسده يسقط على أقرب مقعد إليه وهو يتمتم :

ـ كارثة ! كارثة !

وافقه مدير المخابرات الإسرائيلى بوجه شاحب ، وإيماءة مبتورة ، فدفن الرجل وجهه بين كفيه بضع لحظات ، قبل أن يُطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، ثم يلتقط سمّاعة الهاتف ، ويطلب رقم رئيسة الوزراء ، التى لم تكد تتعرف صوته ، حتى سألته فى لهفة :

ـ هل أحضرت الأوراق المطلوبة ؟!

ازدرد (ياريف) لعابه فى صعوبة ، وقال :

ـ كلاً .. لم تكتمل الأوراق .

هتفت محنقة :

ـ كيف هذا ؟! الاجتماع سيبدأ بعد ..

قاطعها فى توتر زائد :

ـ أعتقد أن أفضل مايمكن عمله الآن ، هو إلغاء الاجتماع ، حتى إشعار آخر .

صمتت رئيسة الوزراء الإسرائيلية لحظة ، من فرط الصدمة ، قبل أن تسأله فى خفوت ، شف عن مدى انفعالها :

ـ ماذا حدث ؟!

أطلق زفرة أخرى ، قبل أن يُجيب :

ـ المصريون فعلوها مرة أخرى .. لقد أوقعوا بأقوى رجالنا فى (القاهرة) .. وبضربة واحدة .

ولم تنبس رئيسة الوزراء بحرف واحد ..

فقد كانت الصدمة عنيفة ..

إلى أقصى حد ..

★ ★ ★

(إبراهيم سعيد شاهين) ، موظف سابق وأحد سكان مدينة (العريش) ، الذين عانوا الأمرين ، بعد الاحتلال الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧م

لقد خسر وظيفته ، وعمله ، فى نفس الوقت الذى انشطرت فيه عائلته ؛ إذ كان ولداه (نبيل) و(محمد) يدرسان فى (القاهرة) فى حين يُقيم هو وزوجته (انشراح على موسى) فى (العريش) ويكافحون كالآخرين ، للحصول على دخل يكفى لحياة متوازنة ، فى ظل الاحتلال ..

كثيرون هم من عانوا هذه الظروف ..

وقلة من فعلوا مثل (إبراهيم شاهين) ، الذى رأى أن السبيل الوحيد ، للتخفيف من وطأة ومتاعب الاحتلال ، هو اللجوء إلى المحتلين أنفسهم ..

وفى صباح أحد الأيام الدافئة توجه (إبراهيم) إلى الحاكمية العسكرية ، وطلب مقابلة أحد المسئولين فيها ، طلبًا لفرصة عمل أو مساعدة ، فالتقى به بالفعل الضابط (نعيم) ، واستمع إليه جيدًا ، ثم طلب منه الحضور فى اليوم التالى ..

وكعادة الإسرائيليين ، قضى الضابط (نعيم) ذلك اليوم ، فى جمع المعلومات عن (إبراهيم شاهين) ، ومعرفة طبائعه

وسماته ، ومراجعة تصرفاته ، حتى جاء اليوم التالى ، وهو يُدرك جيدًا طبيعة الرجل ، الذى حضر فى الموعد المحدد ، فأعطاه (نعيم) جوال دقيق ، وطلب منه الاتصال به مرة أخرى ، إذا ما احتاج إلى المساعدة .

وعاد (إبراهيم) إلى منزله بجوال الدقيق ، الذى سعدت به زوجته (انشراح) ، وراحت تلقى عليه عشرات الأسئلة ، حول الضابط (نعيم) ، وأسلوب حديثه ، وما طرحه عليه من أسئلة ، ثم لم تلبث أن شجعته على الاتصال به مرة أخرى ، وطلبت منه أن يتقدم بطلب للسفر إلى (القاهرة) ؛ ليلتئم الشمل لولديهما (نبيل) و(محمد) .

وبفضل تشجيع (انشراح) المستمر ، ذهب (إبراهيم) مرة أخرى لمقابلة الضابط (نعيم) ، الذى أحسن استقباله ، ودعاه إلى مكتبه ، مما شجع (إبراهيم) ، فطلب منه تصريح السفر إلى (القاهرة) ؛ وهنا تراجع (نعيم) فى مقعده ، وسأله :

ـ وما الذى ستفعله فى (القاهرة) يا (إبراهيم) ؟

أجابه (إبراهيم) فى حذر :

ـ لى ولدان هناك ، وسوف ..

قاطعه الضابط (نعيم) فى صرامة ، مكررًا :

ـ ما الذى ستفعله فى (القاهرة) ؟!

تلفت (إبراهيم) حوله فى حذر قلق هذه المرة ، قبل أن يميل نحو مكتب الضابط (نعيم) متسائلاً فى همس ، وكأنه يخشى أن يسمعه أحد :

ـ ماذا تريدون منى أن أفعل فى (القاهرة) ؟!

وهنا ابتسم الضابط (نعيم) وضاقت عيناه ، وهو يقول :

ـ هذا يحتاج إلى مقابلة شخص مسئول .

وفى اليوم التالى اصطحبه (نعيم) إلى (بئر سبع) ، حيث التقى بالضابط (أبى يعقوب) ، الذى عرض عليه العمل معهم فى وضوح ، وأخبره أن كل المطلوب منه فى (القاهرة) ، هو معرفة أسعار الخضر والفاكهة ، بحجة إرسالها إلى شقيقه الذى يمتلك مكتبًا للاستيراد والتصدير فى (لندن) ..

ووافق (إبراهيم) على الفور ، وخاصة بعد أن علم أنه سيحصل على راتب مقداره مائتا دولار شهريًا ، بالإضافة إلى مكافأة خاصة ، على كل معلومة مهمة يرسلها ، ولقد أعطاه (أبو يعقوب) ألف دولار ، وبعض العناوين فى (أوروبا) لإرسال المعلومات إليها ..

وعند عودته إلى منزله أخبر (إبراهيم) زوجته (انشراح) بكل ما حدث ، فسعدت بالراتب وقررت مساعدته فى عمله القذر ، فور وصولهما إلى (القاهرة) ..

وهكذا انتقل (إبراهيم) و(انشراح) إلى (القاهرة) حيث استقبلهما مسئول محافظة (سيناء) فى (القاهرة) فى ذلك الحين ، ومنحهما بعض التسهيلات المالية المخصصة لضحايا العدوان ، كما حصلا على منزل فى حى (المطرية) ، واستقر بهما المقام هناك مع ولديهما (نبيل) و(محمد) والتأم الشمل أخيرًا ..

ولم يُضِع الزوجان لحظة واحدة ، منذ وصولهما إلى (القاهرة) ، فقد بدءوا فى جمع كل ما يمكنهما من معلومات على الفور ، وأخذا يرسلان حصيلتيهما أولاً فأولاً إلى تلك العناوين فى (أوروبا) ..

ويبدو أن تلك المعلومات كانت جيدة بالفعل ، إذ لم يلبث الإسرائيليون أن طلبوا من (إبراهيم) و(انشراح) السفر إلى (روما) وهناك تم سحب جوازى سفرهما المصريين ، وحصلا بدلاً منهما على جوازى سفر إسرائيليين ، باسم (موسى عمر) و(دينا عمر) وحملتهما واحدة من طائرات (العال) إلى مطار (اللد) فى قلب (إسرائيل) ومنه انطلقت بهما سيارة حربية إسرائيلية إلى (بئر سبع) مباشرة ، حيث استقبلهما (أبو يعقوب) ، الذى سألهما عن مصادر معلوماتهما ، قبل أن يقول فى حزم :

- إننا نثق بأقوالكما بالتأكيد ، ولكن هناك اختبارًا ينبغى القيام به .

وكانت صدمة للزوجين ، عندما علما أن السبب الرئيسى لإحضارهما إلى (تل أبيب) هو إخضاعهما لاختبار خاص على واحد من أحدث أجهزة كشف الكذب الأمريكية ..

وعندما جاءت نتائج الاختبار لتؤكِّد أنهما يتعاونان بالفعل مع المخابرات الإسرائيلية ، وليس لحساب المخابرات المصرية ، اعتذر لهما (أبو يعقوب) ، وأخبرهما أن هذا يحدث مع كل العملاء بلا استثناء ، بين كل فترة وأخرى ، ثم أبلغهما أنهما سيتلقيان بعض التدريبات ؛ لرفع مستوى كفاءتهما فى أعمال التجسس وجمع المعلومات ..

وبالفعل تلقى (إبراهيم) و(انشراح) دورة تدريبية متقدمة ، على أعمال التجسس ، واستخدام الأحبار السرية واللاسلكى وغيرها ، قبل أن يعودا مرة أخرى إلى (أوروبا) ، ويستعيدا جوازى سفرهما الحقيقيين ؛ ليعودا بهما إلى (القاهرة) ..

وفى هذه المرة ارتفع الراتب إلى ثلاثمائة دولار ، وتضاعفت مكافأة جمع المعلومات ، مما شجع الزوجين الخائنين على المُضى قُدمًا فى خيانتهما ، وشجعهما أيضًا على القيام بخطوة غير مسبوقة ، فى مجال الجاسوسية ..

فذات يوم ، وبمحض الصدفة ، كشف (نبيل) حقيقة والديه ، وكونهما جاسوسين ، يعملان لحساب المخابرات الإسرائيلية ..

وعلى عكس ما توقع (إبراهيم) و(انشراح) لم يغضب (نبيل) ، أو يثر ، أو حتى ينظر إليهما نظرة احتقار وازدراء ، بل طالب بنصيبه فى الكعكة ما دامت تكفى الجميع ..

وبأسلوب عملى بحت ، وبلا أدنى لمحة من المشاعر الأبوية ، أخبر (إبراهيم) ابنه أنه لانقود بلا عمل ، وما دام يرغب فى الحصول على أجر كبير ، فليقم بجمع المعلومات المطلوبة أيضًا ..

وهكذا انضم عضو جديد إلى شبكة الجاسوسية العائلية ..

ولم يمض شهران آخران ، حتى انضم (محمد) أيضًا إلى مستنقع الخيانة ، ليكتمل بهذا النصاب العائلى كله ، وليكتب تاريخ الجاسوسية اسم أوّل عائلة تعمل بالكامل فى هذا المضمار ، وفى الجانب القذر منه فحسب ..

ومع تعاون الأسرة ، بدأ الإسرائيليون يتلقون فيضًا من المعلومات التى أسالت لعابهم ، وأثارت اهتمامهم ، وخاصة فى تلك الفترة بعد وفاة الرئيس (جمال عبد الناصر) وتولى الرئيس (أنور السادات) السلطة ، وسعى الجميع لمعرفة قراره بشأن الموقف المتجمد فى (سيناء) ..

حرب أم لا حرب ؟!

ولأن الموقف كان يستحق الانتقال إلى خطوة تالية ، فقد تم استدعاء الزوجين مرة أخرى إلى (روما) ، ومنها سافرا بجوازى السفر الإسرائيليين إلى (اللد) ومنها إلى (بئر سبع) ، حيث استقبلهما (أبو يعقوب) ، بترحاب بالغ هذه المرة ، وأخبرهما أن راتبهما سيرتفع إلى ثلاثمائة وخمسين دولارًا ، كما أن المكافآت ستتضاعف مرة أخرى ، ثم أبلغهما أنهما سيتلقيان دورة تدريبية جديدة متقدمة ، عن كيفية تصوير الأهداف والمستندات ، وأن بانتظارهما مفاجأة مدهشة بعد انتهاء الدورة مباشرة ..

وخاض الزوجان الدورة التدريبية الجديدة ، وتلقى كل منهما آلة تصوير حديثة دقيقة ، يمكنها التقاط الصور فى الضوء الخافت ، وبسرعة كبيرة ، ودون الحاجة إلى مصابيح تصوير ..

ومع اجتياز الدورة بنجاح ، كانت تلك المفاجأة فى انتظارهما بالفعل ..

فبعد اطمئنان الإسرائيليين إلى إخلاص (إبراهيم) و(انشراح) فى الخيانة قرروا ضمهما إلى الجيش الإسرائيلى فحصل (إبراهيم) على رتبة مقدم ، فى حين حصلت (انشراح) على رتبة ملازم أول ..

وعاد الخائنان إلى (مصر) وهما يحملان رتبتيهما الجديدتين ، وآلات التصوير الحديثة ..

وعادت عجلة الخيانة تدور ..

وفى أوائل أكتوبر عام ١٩٧٣م سافرت (انشراح) وحدها إلى (روما) وانتظرت هناك قدوم (أبى يعقوب) ، الذى وصل يوم السابع من أكتوبر ، وهو يحمل حزن ومرارة الدنيا كلها ، وسألها عن ظروف الحرب ، وسقوط خط (بارليف) ، وتفوق المصريين والسوريين على الجبهتين ، فتلقت الخبر كالصاعقة ، وأخبرته أنها لا تعلم أى شىء عن تفاصيل الحرب ، وأنها تسمع الأمر منه لأوّل مرة ..

ويومها بكى (أبو يعقوب) منهارًا ، وأخبرها أن هذا أسوأ يوم فى حياته كلها ، وأن مفاجأة حرب السادس من أكتوبر كانت فوق طاقته ، فهدأت (انشراح) من روعه ، وأخبرته أنها تشعر بالصدمة نفسها ..

ولم تكد (انشراح) تعود إلى (القاهرة) حتى وصل استدعاء إلى (إبراهيم) ليُسافر وحده إلى (بئر سبع) ..

وفى إبريل ١٩٧٤م سافرت الأسرة كلها إلى (تركيا) ثم انفصل (إبراهيم) عنهم وسافر وحده إلى (بئر سبع) ؛ حيث

استقبله (أبو يعقوب) مع طاقم جديد من ضباط المخابرات الإسرائيليين بعد أن أسقطت الحرب الطاقم القديم ، وهناك واجهه السؤال الأكثر أهمية :

ـ كيف لم تشعر ببوادر الحرب فى (القاهرة) ؟!

وكان (إبراهيم) مخلصًا فى جوابه تمامًا ، عندما قال :

ـ لم يشعر أحد ببوادر الحرب .. كل شىء كان يسير على ما يُرام .. حتى الذين يعملون كضباط فى الجيش المصرى ، لم يشعروا قط أن الحرب على الأبواب ..

بل لقد فتحت القوات المسلحة المصرية باب التقدم لعمرة (رمضان) ، وبعض الضباط الكبار حجزوا أماكنهم بالفعل ..

كان جوابه سليمًا ومنطقيًا للغاية ، وكل الجالسين حول مائدة الاجتماعات يعلمون هذا جيدًا ؛ فقد أجاد الرجال فى (القاهرة) اللعبة تمامًا ، حتى إن كل أجهزة المخابرات الإسرائيلية ، وحتى الأمريكية ، لم يمكنها التنبؤ بالأمر فى حينه ، فجاءت الحرب مفاجأة صاعقة للجميع ..

لذا فقد ابتلع الإسرائيليون الجواب ، وأخبروه أن أكثر ما يُقلقهم الآن هو أن يشن عليهم المصريون حربًا أخرى فى هذا الوقت الذى لم تلتئم فيه جراحهم بعد ، خاصة وأنهم لم يستعيدوا (سيناء) كاملة ..

وبصوت حمل كل توتره ، قال قائدهم :

ـ المطلوب منك فى المرحلة القادمة ، هو كشف نوايا المصريين والسعى لمعرفة هدفهم القادم بالتحديد ، ولو نجحت فى إبلاغنا بموعد الحرب القادمة ، قبل اندلاعها بيوم واحد على الأقل ، ستحصل على مكافأة ضخمة .

ثم مال نحوه مستطردًا :

ـ مليون دولار !!

شهق (إبراهيم) من فرط الدهشة والانبهار ، إلا أنه لم يلبث أن عبر قلقه الخاص ببطء ووسائل الاتصال ، وصعوبة إيصال المعلومات لو نجح فى الحصول عليها ، فى الوقت المناسب ؛ لذا فقد أخبره رجل المخابرات الإسرائيلى أنهم سيمنحونه أحدث جهاز اتصال لاسلكى ، ويمكنه بث رسائله بسرعة خمس كلمات فى الثانية الواحدة ، وطلبوا منه الحفاظ على الجهاز ، واستخدامه لإبلاغهم بالمعلومات أولاً فأولاً ..

وعاد (إبراهيم) وأسرته إلى (القاهرة) هذه المرة ورءوسهم جميعًا تحلم بمكافأة الخيانة الكبرى ..

بالمليون دولار !!

وفى منزلهم الجديد قام (إبراهيم) بتجربة إرسال ، بوساطة الجهاز الجديد ، إلا أن البث لم يكتمل ، بسبب عطل فى أزرار الجهاز ، وحاول (إبراهيم) إصلاح العطل ولكن ذلك لم يكن ممكنًا ، دون طاقم أزرار جديد ..

ولأن هذه الأشياء لا يمكن أن تتوافر للمستهلك العادى ، تطوعت (انشراح) بالسفر وحدها إلى (إسرائيل) ؛ لإحضار طاقم أزرار بديل ..

وسافرت (انشراح) دون أن تدرى أن وصول جهاز الاتصال الجديد كان البداية ..

بداية نهاية رحلة الخيانة الطويلة ..

فالواقع أن المخابرات المصرية كانت تضع عينيها على عائلة (إبراهيم شاهين) منذ فترة طويلة ، وخاصة مع أسفارهم المتعددة ، وعلامات الثراء التى ظهرت عليهم ، والبذخ الذى ينفق به الابن (نبيل) بالتحديد ..

ومع المراقبة المستمرة كانت الصورة تتضح أكثر وأكثر ..

وكانت الخيانة ترسم صورتها بحروف من طين ..

كل ما كان ينقص الرجال هو الدليل المادى القوى الذى يكفل لهم إلقاء القبض على عائلة الخونة بأكملها ، دون ثغرة واحدة ..

وعندما بدأ (إبراهيم) ذلك البث الذى لم يكتمل ، لم يكن يدرك أنه بذلك يمنح الرجال الدليل الذى ينشدونه ..

الدليل على خيانته وخيانة أسرته كلها ..

ففى ذلك الحين ، وعلى الرغم من تصور الإسرائيليين أنهم يمتلكون تكنولوجيا غير مسبوقة ، كان لدى (مصر) جهاز جديد ، يعرف باسم (صائد الموجات) له قدرة مدهشة على اصطياد أية موجة قصيرة ، وتحديد مصدر بثها ، بدقة تبلغ واحد فى كل مائة ألف كنسبة خطأ ..

وهكذا علم الرجال أن الجهاز قد وصل إلى (القاهرة) .

وأن عائلة الخونة قد سقطت ..

وفى السادسة من صباح الخامس من أغسطس عام ١٩٧٤م ، تم اعتقال (إبراهيم شاهين) وولديه (نبيل) و(محمد) فى منزلهم ..

والعجيب أن (إبراهيم) لم يقاوم الاعتقال !!

بل ولم يعترض بحرف واحد ، أو يسأل الرجال حتى عن هويتهم ، أو إذن النيابة العامة ، الذى يحملونه !!

وفى استسلام ذليل كتب اعترافه كاملاً ، وذيله بتوقيعه ..

وعندما عادت (انشراح) ، فى السادس والعشرين من أغسطس ، فوجئت برجال المخابرات فى منزلها ، يواجهونها بخيانتها ، فهاجت وماجت ، وصرخت وبكت واستنكرت ، ثم استعطفت وتوسلت وأعلنت استعدادها للتعاون ..

ولكن بعد فوات الأوان ..

وفى الثلاثين من أغسطس ، وبعد أن كشف المصريون موجة الإرسال التى يبث بها الجهاز الجديد رسائله إلى (إسرائيل) ، أرسلوا إلى رجال المخابرات الإسرائيلية رسالة قصيرة تقول :

لا تزعجوا أنفسكم بالاتصال بعميليكم (إبراهيم) و(انشراح) ؛ فقد انكشف أمرهما ، وأصبحا فى قبضتنا .. وإلى جولة أخرى .. المخابرات المصرية .

وهى نفس الرسالة التى قرأها (أهارون ياريف) المستشار الأمنى لرئيسة الوزراء الإسرائيلية - حينذاك - (جولدا مائير) التى أدركت ، كما أدرك الجميع ، أن المصريين قد ربحوا هذه الجولة أيضًا ..

وبتفوق ..

وفى الخامس والعشرين مـن نوفمبر ١٩٧٤م ، أصدرت المحكمة العسكرية حكمها بإعدام (إبراهيم سعيد شـاهين) وزوجته (انشراح على موسى) ، وبالسجن خمس سنوات لابنهما (نبيل شاهين) ، وبتحويل (محمد) إلى الأحداث ..

وكـان هذا هو الفصل الأخير فى قصة الخيانـة ، التـى دفعت ثمنها عائلة بأكملها ..

العائلة المسمومة !

★ ★ ★

٣ـ إلا العــرب..

«ماذا لو أن العرب امتلكوا قنبلة نووية ؟! »

المؤسف أن هذا التساؤل لم يدر فى عقول العرب ، أو حتى فى قلوبهم واستراتيجياتهم ، فى الوقت الذى سيطر فيه تمامًا على العقول الغربية والصهيونية ..

فمنذ ظهر السلاح النووى إلى الوجود ، فى نهاية الحرب العالمية الثانية ، اعتبر العالم كله أن من يمتلكه يمكن أن يصعد إلى مصاف الدول الكبرى ، فى حين أن الدول التى تفتقر إليه ، ستظلّ دومًا فى الخانة الثانية ، أو الثالثة ..

ولأن العرب قوة هائلة ، تحتل أفضل مكان فى خريطة العالم ، وتمتلك ثروات هائلة ، لم تستخدم سوى عشرين فى المائة منها فقط ، وفقًا لآخر إحصائية ظهرت إلى الوجود ، لحظة كتابة هذه السطور ، فقد أدرك الغرب أن امتلاك العرب لكيان عسكرى ضخم ، يعنى أن تقفز تلك القوة العربية إلى مصاف الدول المتقدّمة ، فماذا لو امتلكت قوة نووية أيضًا ؟!

الفكرة أفزعت الغرب كله ، وأفزعت أكثر (إسرائيل) ، تلك الشوكة المؤلمة المسمومة ، المزروعة فى قلب الشرق الأوسط ..

وعلى الرغم من أن العالم العربى كان يرزح تحت نير احتلال رهيب ، فرنسى وبريطانى وإيطالى ، فقد خطّطت (إسرائيل) ، ومنذ قيامها عام ١٩٤٨م ، لمنعه من تقوية جيوشه ، أو تطوير أسلحته ، وبالذات فى أن يسعى لامتلاك قنبلة نووية ..

الشىء الوحيد ، الذى كان يطمئن الغرب و(إسرائيل) ، إلى أن الحلم النووى لن يتحقّق قط ، فى العالم العربى ، هو أن دوله كلها (تقريبًا) ، كانت خاضعة لطغيان دول أخرى غربية ، و ...

ولكن فجأة ، قامت فى (مصر) ثورة ..

ثورة الثالث والعشرين من يوليو ، عام ١٩٥٢م ..

صحيح أن الأمر قد بدأ كانقلاب عسكرى ، أو كحركة عسكرية داخلية ، تهدف إلى تطهير الجيش وتطويره ، إلا أن الأمور لم تلبث أن تطوّرت بسرعة ، بحيث لم يمض شهر واحد ، حتى بات من الواضح أن رجال الحركة لن يكتفوا بانقلاب محدود ، ولكنهم يسعون إلى ثورة شاملة ، قادرة على قلب الأوضاع ، فى المنطقة العربية كلها ، رأسًا على عقب ..

وهنا انتبه الغرب ، وانتبهت (إسرائيل) إلى الخطر ..

وقرَّرت أن تتحرك ..

وبمنتهى القسوة والعنف كالمعتاد ..

ولأن الإسرائيليين اعتادوا أن يشخصوا بأبصارهم بعيدًا ، وربما أبعد مما نفعل نحن بكثير (للأسف) ، فقد أدركوا أن إنتاج القنبلة النووية ليس أمرًا يقتصر على التمويل المادى أو التطوّر التقنى ، وإنما يعتمد بالدرجة الأولى على العقول المفكّرة ، والعبقريات النادرة ، القادرة على التعامل مع العالم النووى ، وتحويله إلى واقع ملموس ..

لذا فقد بدأت (إسرائيل) فى متابعة نشاط العقول المصرية ، فى شتى المجالات ، وبالذات الفيزيائية والنووية منها ..

وكان من الطبيعى ، والحال هكذا ، أن يرصدوا العبقرية الفذّة (سميرة موسى) ..

و(سميرة موسى) هذه فتاة مصرية ، وُلِدَت فى الثالث من مارس ، عام ١٩١٧م ، فى قرية (سنبو) الكبرى ، فى محافظة الغربية ، وتعلمت فى كُتّاب القرية ، وهو وسيلة بدائية بسيطة ، كانت أساس التعليم ، فى ذلك الزمن ، فى كل قرى (مصر) ، وفى بعض أطراف مدنها أيضًا ..

وفى مرحلتها الابتدائية ، أدرك ناظر مدرسة القرية نبوغ تلميذته ، فما كان منه إلا أن نصح والدها بالاهتمام بها ، والعناية بتعليمها وتثقيفها ..

والتقط الأب النصيحة ، وانتقل مع ابنته (سميرة) إلى المدينة ؛ ليلحقها بمدرسة (قصر الشوق) الابتدائية ، ثم مدرسة (الإشرافية) الثانوية ، التى كانت تديرها فى ذلك الوقت ، عبقرية تعليمية فذة ، وهى (نبوية موسى) ..

والدليل على عبقرية (نبوية موسى) ، هو أنها قد أدركت نبوغ وتفوّق تلميذتها (سميرة) ، وبالذات فى مجال الفيزياء والعلوم ، فأنشأت من أجلها معملاً كاملاً فى المدرسة ؛ لتتيح لها إجراء تجاربها ، والتفوّق أكثر وأكثر فى مجالها ..

ونجحت (سميرة موسى) بتفوّق ..

والتحقت بكلية العلوم ، التى تخرّجت فيها بدرجة الامتياز ، مع مرتبة الشرف الأولى ؛ لتصبح الأولى على دفعتها ، وتجذب أنظار الكل بلا استثناء ..

والعجيب أن مجلس الجامعة ، على الرغم من هذا ، قد رفض بإصرار تعيينها فى هيئة التدريس ، باعتبارها أنثى ، والتدريس - فى ذلك الوقت - كان قاصرًا على الرجال وحدهم داخل الجامعة ..

ولكن (سميرة) رفضت الاستسلام لهذا التعنت غير المنطقى، وتمسَّكت بحقها فى التعيين، وآزرها أستاذها الدكتور (على مشرفة)، الذى تقدَّم باستقالته، أو هدَّد بتقديمها، لو تم رفض تعيين (سميرة)..

وانتصرت (سميرة موسى) هذه المرة..

وأصبحت أوَّل معيدة فى كلية العلوم..

ومن جامعة (فؤاد الأوَّل) (القاهرة حاليًّا) حصلت (سميرة موسى) على درجة الماجستير، ثم سافرت إلى (إنجلترا)، للحصول على درجة الدكتوراه..

وفى (انجلترا)، أذهلت العالمة المصرية العبقرية الجميع، عندما أثبتت نبوغًا مدهشًا، جعلها تحصل على درجة الدكتوراه فى سبعة عشر شهرًا فحسب..

وبعد حصولها على درجتها، تلقَّت (سميرة) عشرات الدعوات، لزيارة المعامل، فى (إنجلترا) و(أمريكا)، ولنشر أبحاثها واختراعاتها وابتكاراتها هناك..

وانذهل علماء البلدين بأبحاثها، وبنتائجها المذهلة، وبخاصة تلك الخاصة بالنظائر المشعة، وإمكانية إنتاج الطاقة الذرية من معادن رخيصة..

وبكل انبهار، كتب أحد العلماء عنها، قائلاً:

- تجارب (سميرة موسى) المدهشة، قادرة على تغيير وجه العالم، بل والإنسانية كلها، وكل ما تحتاج إليه هو بعض المعونة والتمويل فحسب..

وخفقت قلوب الإسرائيليين قلقًا، لعبارة ذلك العالم الشهير، ذى الأصول اليهودية، والذى انبهر بتجارب (سميرة)، دون أن ينتبه إلى ما تمثله من خطر رهيب، على أمن واستقرار ومستقبل (إسرائيل).

وفى ذلك اليوم تقريبًا، اتخذت المخابرات الإسرائيلية قرار التخلص من أوَّل عبقرية عربية مصرية نووية..

وفى الولايات المتحدة الأمريكية، تلقَّت (سميرة موسى) عدة عروض مغرية للغاية، للتخلى عن جنسيتها المصرية، والحصول على الجنسية الأمريكية؛ لتعمل وتقيم هناك إلى الأبد..

كانت العروض تعنى المال الوفير، والإمكانيات العلمية المعملية اللامحدودة، والتمويل المفتوح..

ولكن (سميرة) رفضت كل هذا..

وبمنتهى الإصرار..

رفضت أن تمنح عقلها وعبقريتها ونبوغها إلى أية دولة أخرى ، بخلاف (مصر) ..

و(مصر) وحدها ..

وهنا تأيَّد القرار ..

وتم وضعه موضع التنفيذ ..

وذات صباح ، وبينما كانت فى طريقها إلى أحد المعامل الذرية فى (كاليفورنيا) ، انقضَّت سيَّارة ضخمة على سيارتها ، وارتطمت بها ودفعتها خارج الطريق ؛ لتهوى فى أحد الوديان ، وتتحطَّم فى عنف ..

ولقيت (سميرة موسى) مصرعها ..

وخسرت (مصر) ، وخسر العالم العربى كله عبقرية فذة ، وخطوة كان يمكن أن تصنع فارقًا لا محدودًا ، فى لعبة الصراع النووى ..

فى الجانب العربى على الأقل ..

وبعد مصرع (سميرة موسى) ، استرخى الإسرائيليون ،

واطمأنوا إلى أن رحلة إنتاج القنبلة النووية العربية أصبحت أطول ..

أطول بكثير ..

ولسبب ما ، كانوا على حق فى تفكيرهم هذا ، فمع تطوّر الأمور ، واندفاع الثورة المصرية فى تأييد كل الحركات التحرُّرية ، فى كل مكان فى العالم العربى ، ومع استقلال الدول العربية ، واحدة بعد الأخرى ، وارتفاع نبرة الهجوم على كل النظم الغربية الاستعمارية بدأ الغرب يضع محاذير قوية ، على تصدير التكنولوجيا النووية للدول العربية .

أما السوفيت ، والذين أضفوا على أنفسهم سمة الشعب الحر ، الذى يساعد كل الشعوب الساعية إلى التحرُّر والتطوُّر ، فقد تجاهلوا تمامًا رغبات تلك الشعوب ، فى اللحاق بالنادى النووى ، ورفضوا رفضًا باتًا منحها أية تكنولوجيات أو تقنيات نووية ، باعتبار أنها غير قادرة على توجيه ذلك السلاح الهائل ، أو ترشيد استخدامه ..

نفس النبرة استخدمها الغرب ، وهو يبذل جهده ؛ لمنع كل

الدول العربية من إنتاج أية أسلحة نووية ، فى نفس الوقت الذى راح يتعاون فيما بينه ، على تطوير تلك الأسلحة لديه ..

ولدى (إسرائيل) أيضًا ..

وبدا العالم العربى يتوتر ، مع تلك التفرقة الواضحة السخيفة ..

وفى عام ١٩٦٩م ، فوجئ الرئيس (جمال عبد الناصر) بأحد المسئولين الكبار ، من دولة عربية مجاورة ، يحضر إلى (القاهرة) ويخبره أنه يحمل مبلغًا رهيبًا من المال ، وأنه فى طريقه إلى دولة أجنبية ؛ لشراء قنبلة نووية ..

واندهش الرئيس (جمال عبد الناصر) بشدة ، وقضى وقتًا أطول مما ينبغى ؛ ليشرح للمسئول العربى الكبير ، أن القنبلة النووية لا تُشترى بالمال ؛ لأنها ليست مشكلة اقتصادية أو مالية ، وإنما هى مشكلة سياسية استراتيجية بحتة ، وأن كل أموال الدنيا لا يمكنها أن تشترى خيطًا نوويًا ، من قبل جهة يرفض الغرب والشرق معًا منحها ذلك السلاح الرهيب ..

وهنا فقط ، أدرك المسئول الكبير الحقيقة ..

الغرب لن يسمح لنا أبدًا بامتلاك قنبلة نووية ..

ربما يسمح لـ (أوروبا) ..

و(آسيا) ..

وحتى (إسرائيل) ..

إلا العرب ..

وحدهم العرب ، ينبغى أن يظلوا فى المرتبة الثانية ..

أو الثالثة ..

أو حتى العاشرة ..

والعجيب أن العرب أنفسهم قد أدركوا هذه الحقيقة ..

واستسلموا لها ..

ثم فجأة ، كسر (العراق) القاعدة ..

وبقرار سياسى ، وإرادة منفردة ، وتحدٍّ سافر لكل قواعد الغرب والشرق ، قرَّر أن ينشئ مفاعلاً نوويًا ..

وأن ينتج قنبلة نووية ..

وبالفعل ، بدأ (العراق) فى إقامة مفاعله النووى (أوسيراك) ، وبدأ فى عقد الصفقات ، فى سرية تامة بقدر الإمكان ، للحصول على الخامات اللازمة ، والمواد الدقيقة ، والماء الثقيل ، واليورانيوم المخصَّب ، وكل ما يلزم لإنتاج القنبلة النووية العربية الأولى ..

وعرفت (إسرائيل) ..

وجنَّ جنونها ..

وبإيقاع محموم ، راحت تجمع كل المعلومات الممكنة ، عن المشروع النووى العراقى ، حتى وقعت فى يدها معلومة بالغة الخطورة ..

(العراق) يستعين بالعالم المصرى (يحيى أمين المشد) ؛ لإدارة مشروعها النووى ، والإشراف على خطوات إنشائه ، وكمشرف فنى على كل ما يتم شراؤه سرًا ، من كل مكان فى العالم ، من الخامات ، والمواد اللازمة للمشروع ..

والدكتور (يحيى المشد) هذا عالم ذرة نابغة ، مولود فى الحادى عشر من يناير ، عام ١٩٣٢م ، وتلقَّى تعليمه فى مدينة طنطا ، وفى كلية الهندسة بجامعة الإسكندرية ، التى تخرَّج

فيها عام ١٩٥٢م ، بتقدير امتياز ، مع مرتبة الشرف ، وكان ثالث دفعته ..

وعلى الرغم من أنه مهندس كهرباء ، إلا أنه قد حصل من (موسكو) ، على درجة الدكتوراه ، فى هندسة المفاعلات ، وأصبح متخصِّصًا فى تصميم المفاعلات النووية ، والتحكُّم فيها ، واستخدام الحاسب الآلى فى إدارتها ..

وباعتراف زملائه ، كان الدكتور (المشد) هو العالم المصرى الوحيد ، الذى اهتمَّ حقًّا بدراسة تصميمات القنبلة النووية ، وتكنولوجية تصنيعها ، حتى قيل إنه كان صاحب أوَّل مدرسة علمية فى المفاعلات النووية ..

وبعد عودة (المشد) من (موسكو) ، تم تعيينه فى هيئة الطاقة الذرية فى (أنشاص) ، فى قسم المفاعلات النووية ؛ ليسافر بعدها إلى (النرويج) ، ويعود خبيرًا محنكًا فى مضماره ..

لهذا وقع عليه اختيار (العراق) ؛ لتنفيذ مشروعها النووى ..

ولهذا أيضًا ، أدركت المخابرات الإسرائيلية أنه يمثل خطرًا داهمًا ، على الكيان الصهيونى كله ..

وتقرّر إزاحته عن الطريق ..

وبأى ثمن ..

وفى مساء الخميس ، الثالث عشر من يونيو ، عام ١٩٨٠م ، وفى أثناء رحلة لاختيار بعض المواد من (فرنسا) ، وعلى عكس حادثة السير المفتعلة ، لسيارة (سميرة موسى) ، تم اغتيال الدكتور (يحيى المشد) فى حجرته ، بفندق (ميريديان) (باريس) ..

وظفرت (إسرائيل) والقوى الغربية بعالم ذرة آخر ..

ولكن البرنامج النووى العراقى استمر ..

وهذا أمر طبيعى ..

فمن المستحيل أن يتوقّف مشروع ضخم كهذا ، على فرد واحد ، مهما بلغت أهميته ..

وتواصل العمل ، فى المفاعل الذرى العراقى (أوسيراك) ..

وهنا ، لم يجد الإسرائيليون أمامهم سوى اللعب بوقاحة ، كعادتهم فى الأمور المماثلة ..

وفى السابع من يونيو ، عام ١٩٨١م ، اخترقت الطائرات الإسرائيلية المجال الجوى العراقى ، وقصفت المفاعل النووى (أوسيراك) ..

وهلّل الغرب لنسف المفاعل النووى العراقى ..

ومشروع القنبلة النووية العراقية ..

والعربية ..

ونسى (العراق) أو تناسى مشروعه النووى ..

ولكن الغرب لم ينس أبدًا .

وفى الوقت الذى راح فيه المخزون النووى الإسرائيلى يتراكم ، انطلقت القوة الأمريكية والبريطانية الغاشمة والبلطجية تدك (العراق) ، بحجة أنه يمتلك أسلحة دمار شامل ..

والمضحك أنه لو امتلك (العراق) بالفعل ، أسلحة دمار شامل ، لما جرؤت (أمريكا) أو (بريطانيا) على مهاجمته ..

ولكنه قانون القوة ..

وقانون البلطجة ..

ذلك القانون ، الذى استخدمته الدول العظمى ؛ لقهر إرادتنا ودحر كرامتنا ؛ لأننا لم نتخذ الخطوة الصحيحة ، فى الوقت الصحيح ، لدخول حلبة الصراع ..

الصراع النووى ..

الرهيب .

* * *

ماذا تقترح ؟!

صديقى القارئ ..

هذه السلسة غير تقليدية ..

إنها أوّل سلسلة ، فى العالم العربى ، تقدّم لك أسرار عالم الأسرار ..

أوّل سلسلة باللغة العربية ، تكشف أمامك ، غموض أقوى عالم ..

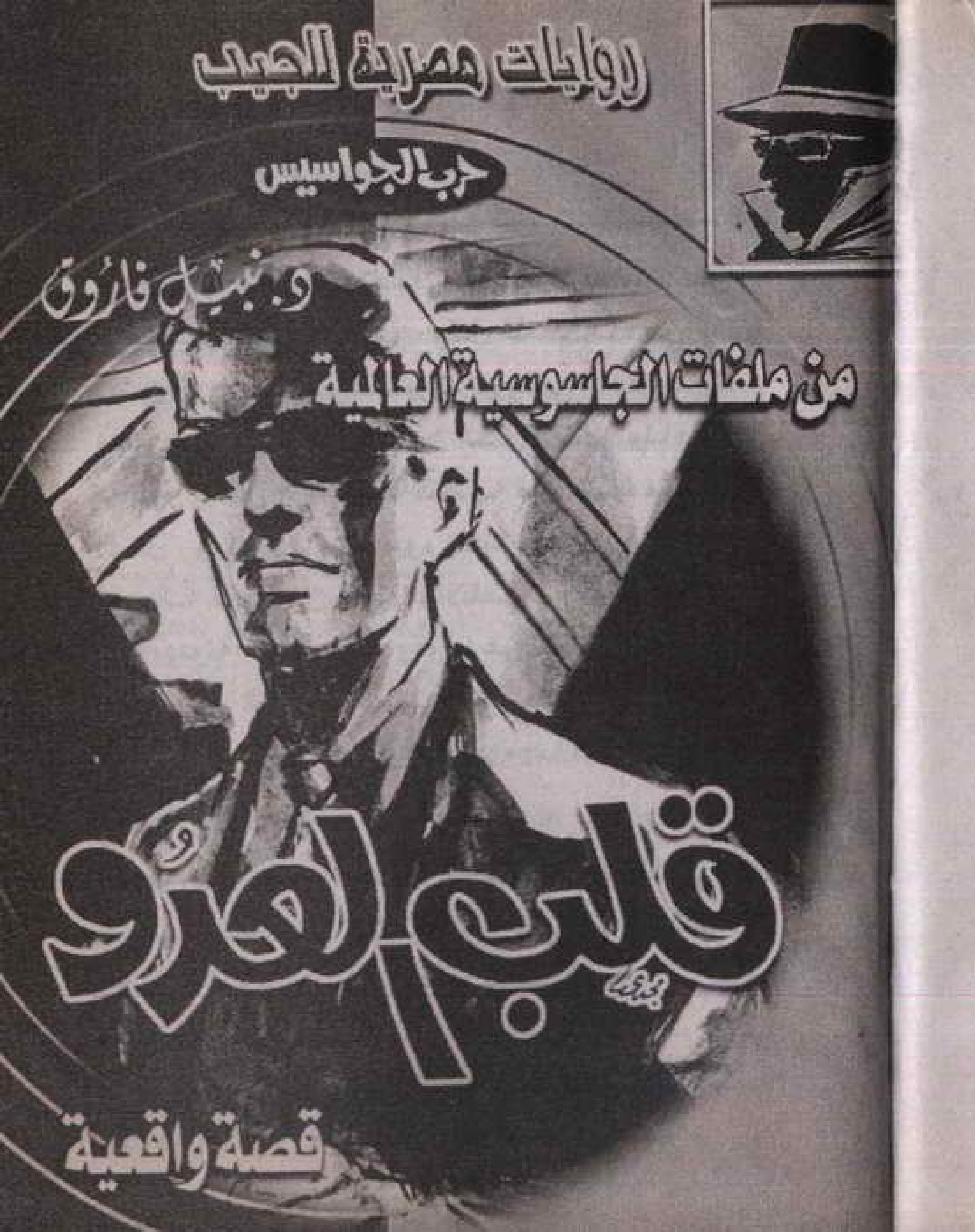
عالم الجاسوسية ..

ولكى تظل السلسلة غير تقليدية ، فلابد أن تشاركنا فيها برأيك ..

باقتراحك ..

بمفهومك ..

أخبرنا ، ما الذى أعجبك أكثر فيها ؟!



أى جزء منها أثار اهتمامك وانتباهك ؟!

وما الذى تقترح إضافته إليها ؟!

موسوعة الجاسوسية ؟!

سينما الجاسوسية ؟!

تاريخ الجاسوسية ؟!

مشاهير عالم الجاسوسية ؟!

أم ماذا ؟!

اقترح ..

وسندرس اقتراحك ، و ....

وربما يجعلنا هذا أفضل ، إن شاء اللّه (العلى القدير)

د. نبيل فاروق

١ـ جاسوس ..

● انتشر الضباب كالمعتاد ، فى العاصمة البريطانية (لندن) ، فى تلك الفترة الهادئة ، من أوائل الثمانينات ، من القرن العشرين ، وأحاط بمبنى المخابرات البريطانى ، المعروف باسم (إم آى ـ ٦) ، والذى بدا من الخارج أشبه ببناء ساكن مهجور ، على الرغم مما اكتظ به من نشاط منظم فى الداخل ، وبالذات فى ذلك اليوم ؛ حيث بدا مدير المخابرات فى حالة نادرة من التوتر والانفعال ، وهو الذى اشتهر دومًا بهدوئه الأسطورى ، وهو يدعو نائبه ورجاله ، الذين يحتلون كل المناصب القيادية فى الجهاز ، إلى اجتماع خاص غير دورى ، أطلق عليه يومها صفة : « عاجل وسرى وخطير للغاية .. »

وفى تلك القاعة الصغيرة ، فى الطابق الثانى من المبنى ، والمخصَّصة للاجتماعات على مستوى القيادة ، وحول مائدة بيضاوية بسيطة ، اجتمع الرجال ، وراحوا كلهم يتطلَّعون ، فى لهفة وفضول وقلق مبهم ، إلى مديرهم ، الذى جلس على رأس المائدة ، وإلى جواره نائبه وذراعه اليمنى ، وموضع ثقته الأوَّل (تيم سيلبى) ..

ولثوان ، لاذ مدير المخابرات البريطانية بصمت مهيب ، وقد انعقد حاجباه على نحو مقلق ، قبل أن يتبادل بضع كلمات هامسة مع (سيلبى) ، الذى انتقل إليه ذلك الشعور بالتوتر ، وهو يدير عينيه فى وجوه الآخرين ، الذين راحت قلوبهم تخفق فى لهفة ، وانطلقت عقولهم تبحث عن السبب الجوهرى ، لهذا الاجتماع العاجل ، والسرى ، والخطير للغاية ..

وقبل أن تضع أذهانهم عشرات الاحتمالات الافتراضية ، ارتسمت صرامة غاضبة على وجه المدير ، وهو يعتدل فى مجلسه ، ويدير بصره فى وجوههم بدوره ، ثم يقول :

ـ بيننا جاسوس سوفيتى أيها السادة .

العبارة تفجَّرت كقنبلة مدوِّية ، فى القاعة الصغيرة ، على نحو لم يحدث من قبل ، مما أرسل رجفة عجيبة فى أجساد الجميع ، وجعل أحدهم يهتف فى دهشة بالغة :

ـ جاسوس سوفيتى هنا ؟! فى (إم آى ـ ٦) .

ضرب المدير سطح مائدة الاجتماعات براحته ، وهو يقول :

ـ بل هنا أيها السادة .. فى هذه القاعة .

العبارة الأخيرة بدت أشبه بألف ألف قنبلة ، تفجَّرت فى أعمق أعماق الحاضرين ، على نحو انتفضت معه أجسادهم فى عنف ، واتسعت لها عيونهم فى ارتياع ، وهتف بعضهم :

- هنا ؟! مستحيل !!

ثم اندفع أحدهم يضيف فى توتر :

- سيِّدى .. كلنا هنا من صفوة رجال (إم آى ـ ٦) .. وكلنا نحتلّ مناصب قيادية ، شديدة الحساسية والخطورة ، ولا ينبغى توجيه اتهام رهيب كهذا إلينا ، دون أدلة دامغة قوية .

تراجع المدير فى مقعده ، قائلاً فى صرامة :

- لا توجد أدلة دامغة .

بدت الحيرة على الوجوه لحظة ، قبل أن يتابع المدير بمنتهى الصرامة :

- ولكن مكتب مكافحة الجاسوسية (إم آى ـ ٥) ، لديه تلك الأدلة .

عاد القلق يسيطر على وجوههم ، ودارت عينا كل منهم فى وجوه الآخرين ، حاملة ذلك المزيج من التوتر والقلق والرهبة والشك ، قبل أن يتساءل أحدهم ، بكل حذر الدنيا :

- ومن هذا الجاسوس يا سيِّدى ؟!

مطَّ المدير شفتيه ، قائلاً ، فى شىء من الغضب :

- معلومات (إم آى ـ ٥) لم تكتمل بعد .. لقد وصلتهم معلومة مؤكَّدة للغاية ، من أحد رجالهم فى (موسكو) ، تؤكِّد وجود جاسوس سوفيتى ، فى مجلس قيادتنا هنا ، وأن ذلك الجاسوس يبلغ المخابرات السوفيتية أوَّلا فأوَّلاً ، بكل تعليماتنا ، واجتماعاتنا ، وقراراتنا الحيوية جدًّا ، وأن معلوماته تبلغ حدًّا من الدقة ، لا يمكن أن يتوافر إلا لبعض المشاركين هنا .. فى مجلس قيادة (إم آى ـ ٦) .

عاد الرجال يتطلَّعون إلى وجوه بعضهم فى توتر ، فتابع المدير بكل الصرامة والحزم :

- ولعلكم تتساءلون الآن ، كيف أخبركم بأمر كهذا ، بدلاً من أن أخفيه ، وأحتفظ به سرًّا ، حتى يتم إسقاط الجاسوس ؟!

لاذ الجميع بالصمت ، فيما عدا (سيلبى) ، الذى تساءل فى حذر :

- هذا يدهشنى فى الواقع يا سيِّدى .

مال المدير إلى الأمام ، قائلاً فى صرامة :

ـ ستزول الدهشة ، لو علمتم أن الأمر قد بلغ جلالة الملكة شخصيًا ، وأن جلالتها قد اجتمعت برئيس الوزراء ، الذى اتخذ قراره بإيقافكم جميعًا عن العمل ، اعتبارًا من هذه اللحظة .

تراجع (سيلبى) بمنتهى الدهشة ، فى حين سرت همهمة عصبية بين الرجال ، عبَّر عنها نائب المدير بقوله :

ـ سيِّدى .. من واجبنا بالطبع أن نطيع كل قرارات رئيس الوزراء ، وكل ما تراه جلالة الملكة ، التى نعمل تحت رايتها وفى خدمتها ، ولكن اسمح لى أن أقول آسفًا ، إن هذا القرار مستحيل التنفيذ .

انعقد حاجبا المدير ، فى صرامة مستنكرة ، ولكن (سيلبى) تابع فى شجاعة :

ـ فكل رجل ، من الجالسين فى هذه القاعة ، يدير إدارة كاملة ، تتولَّى عددًا من القضايا المهمة بالغة الخطورة ، وفى جعبته أسرار عديدة ، لا يمكن التغاضى عنها لحظة ، وإلا فسد العمل كله ، وخسرنا الكثير من العمليات والعلماء ..

قال المدير فى صرامة :

ـ لقد درست هذا الاحتمال أيضًا ، مع السيد رئيس الوزراء ، ووجدنا أننا ، وعلى الجانب المقابل ، لا يمكن أن نغامر باستمرار العمل فى وجود شك كبير ، حول حقيقة انتماء قادة (إم آى ـ ٦) ، لذا فقد قرَّرنا نقل السلطة مؤقتًا ، إلى الصف الثانى من قيادات كل الإدارات ، مع التحفُّظ على القيادات الحالية ، ومنعها من مغادرة المكان ، أو الاتصال بأية جهة كانت ، قبل أن يحسم ذلك الرجل فى (موسكو) الأمر ، ويخبرنا من هو ذلك الجاسوس بالضبط .

أومأ (سيلبى) برأسه متفهمًا ، وهو يغمغم :

ـ قرار حكيم بحق يا سيِّدى .. بهذا يتواصل العمل دون انقطاع ، ونجد الفرصة فى الوقت ذاته ؛ لاستجواب الجميع .

قال أحد القادة فى غضب :

ـ تتحدَّث وكأنك لن تواجه الاستجواب مثلنا ، يا سيِّد (سيلبى) !

أجابه (سيلبى) ، فى سرعة وحزم :

ـ بل إننى أصرّ على أن أكون أوَّل من يتم استجوابه ، وفحص كافة ملفاته .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول فى صرامة :

ـ وسأفعل هذا بنفسى .. وفورًا .

نطق عبارته الصارمة هذه ، على نحو يوحى بأن الاجتماع قد انتهى ، ثم ضغط زرًا أمامه ، حضر على إثره رئيس أمن المبنى ، مع فريق من رجاله ، وأشار إليه المدير فى حزم ، قائلاً :

ـ قادتنا ضيوف لديك يا رئيس الأمن .. نفذ الأوامر الصادرة بشأنهم فورًا .

كان الغضب يمتزج بشعور عارم بالمهانة ، فى أعماق الرجال ، إلا أن عملهم كمحترفين ، فى هذا المضمار ، جعلهم ينفذون الأمر فى صمت واستسلام ، ودون الاعتراض بكلمة واحدة ، وتبعهم (سيلبى) على النحو نفسه ، لولا أن استوقفه المدير ، قائلاً فى صرامة :

ـ انتظر يا (سيلبى) .

بقى نائب المدير وحده ، حتى انصرف الآخرون ، ووقف فى احترام صامت ، ينتظر أوامر مديره ، الذى مطَّ شفتيه بضع لحظات فى مرارة ، قبل أن يقول :

ـ ما رأيك فيما حدث ؟!

وزن (سيلبى) كلماته جيدًا ، وهو يقول :

ـ إنه كارثة يا سيِّدى .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، وزفر زفرة ملتهبة ، من أعمق أعماق صدره ، قبل أن يقول :

ـ وأية كارثة !

ثم نهض من مقعده ، وراح يدور فى القاعة كالأسد الجريح ، وقد عقد كفيه خلف ظهره ، قبل أن يضيف فى صرامة شديدة :

ـ ما يحنقنى أكثر هو أن يتوصَّل (إم آى ـ ٥) إلى هذا ، قبل أن نكشفه نحن بأنفسنا .

اعتدل (سيلبى) فى وقفته ، قائلاً فى حزم :

ـ لم يفت الأوان بعد يا سيِّدى .

التفت إليه المدير ، يسأله فى اهتمام ملهوف :

ـ ماذا تعنى بالضبط يا (سيلبى) ؟!

أجابه فى سرعة :

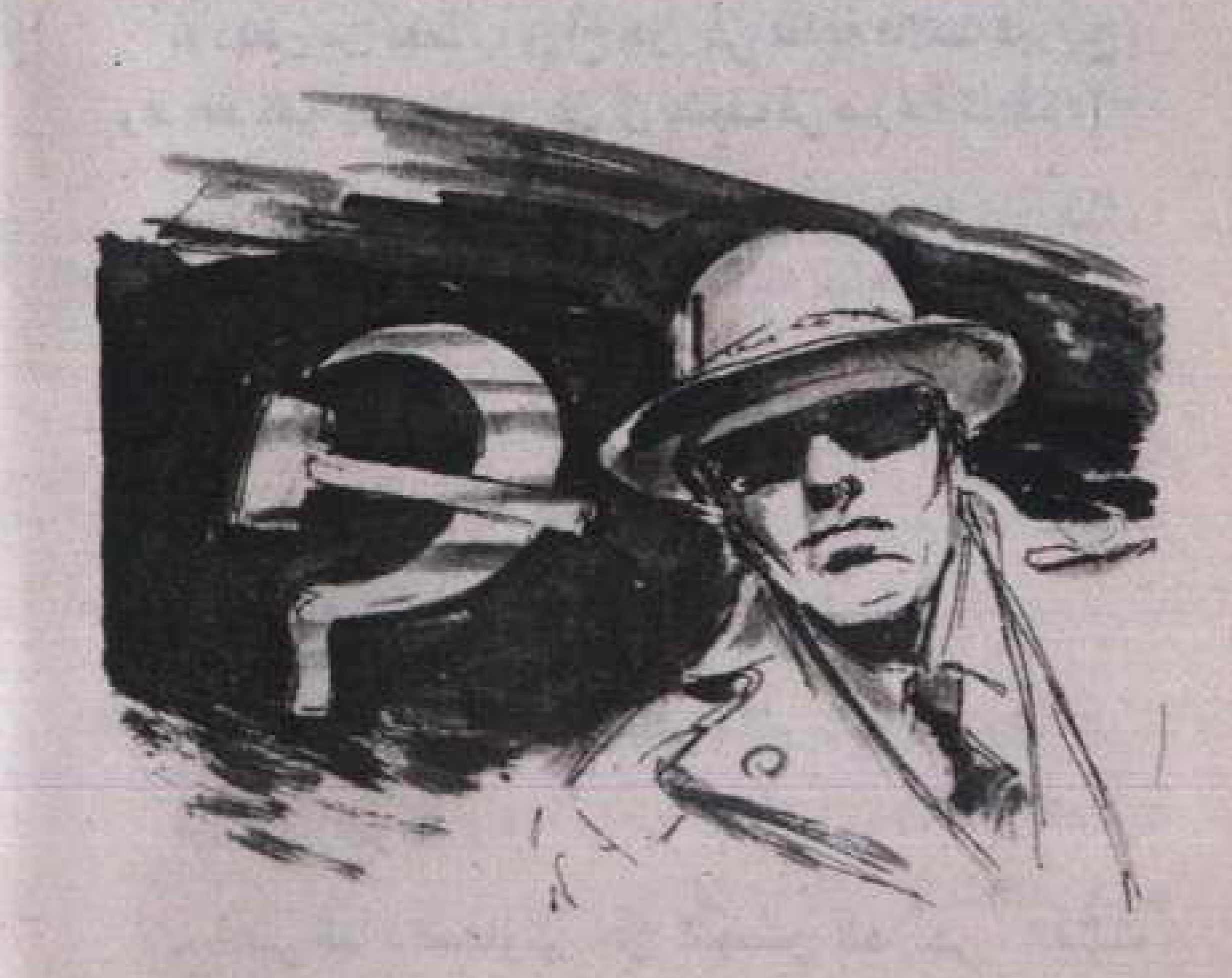
ـ أعنى أننا ، كمسئولين عن التجسُّس الخارجى ، نمتلك حرية تنقُّل ، لا يمتلكها (إم آى ـ ٥) بالتأكيد .

قالها ، ثم راح يطرح وجهة نظره وخطته ..

والواقع أنها كانت خطة قوية ومثيرة ..

مثيرة للغاية ..

★ ★ ★



٢ ـ الجليد ..

● على الرغم من الجليد المنهمر بكثافة ، على العاصمة السوفيتية (موسكو) ، بدا رجل المخابرات السوفيتى (يورى كارباكوف) مبتهجًا ، على نحو يتنافى مع طبيعته المعتادة ، وهو يراجع البرقية الشفرية السرية ، التى وصلته منذ دقائق قليلة ، من قلب (لندن) ، قبل أن يطويها فى عناية ، ويدسها فى جيبه ، ويلتفت إلى زميله ، (إيفان جوديسكى) ، قائلاً :

ـ أظننا قد كشفنا أخيرًا مصدر التسريب ، فى خزان معلوماتنا ، الذى أدركنا وجود ثقب ما فيه ، منذ فترة من الزمن .

مطَّ (جوديسكى) شفتيه ، فى برود مستفز ، وهو يشعل سيجارة قصيرة سوفيتية الصنع ، ذات رائحة نفاذة مزعجة ، قائلاً :

ـ هل أفلحت خطتك ؟!

أشار (كارباكوف) بيده ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، مجيبًا :

ـ أكثر مما نتصور .

مطَّ (جوديسكى) شفتيه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ كنت أظنها أكثر سذاجة ، من أن تصلح للإيقاع بمحترف .

ضحك (كارباكوف) ، وهو يلتقط معطفه ، قائلاً :

ـ هذا يثبت أن البريطانيين هم السذاجة نفسها .

هزَّ (جوديسكى) كتفيه ، دون أن يجيب ، ونهض يرتدى معطفه بدوره ، وغادر الاثنان مكتبهما معًا ، دون كلمة إضافية ، واتجها مباشرة إلى واحدة من سيارات جهاز المخابرات السوفيتى ، وقال (كارباكوف) لأحد رجاله ، قبل أن يدلف إليها :

ـ اتبعونا .. لقد حانت اللحظة .

لم يكد الرجل يسمعه ، حتى أسرع إلى عربتين محملتين بالجنود ، وأشار إلى سائقيهما ، قائلاً :

ـ هيا .

أما (جوديسكى) ، فقد ظلَّ صامتًا ، حتى جمعته السيارة

مع (كارباكوف) ، وانطلقت بهما معًا ، وخلفها العربتان المحملتان بالجنود ، وقال فى برود :

ـ أأنت واثق مما ستفعله ؟!

أشار (كارباكوف) بيده ، قائلاً :

ـ الأمر لا يحتمل الخطأ يا رجل .. إن شكوكنا تحوم حول (جوزيف إيتانوف) بالفعل ، منذ فترة ليست بالقصيرة ، وما دام البريطانيون قد حصلوا على المعلومات ، التى لم نبلغ بها سواه ، فهذا يحسم الأمر تمامًا .. إنه جاسوس للبريطانيين .. ما فى هذا شك .

أومأ (جوديسكى) برأسه مؤيِّدًا ، وغمغم :

ـ نعم .. ما فى هذا شك .

لاذ بعد قوله بالصمت التام ، والموكب العسكرى الصغير يقطع بهما شوارع (موسكو) ، حتى توقَّف عند مبنى صغير من طابقين ، فاستلَّ (كارباكوف) مسدسه ، قائلاً فى جذل عجيب :

ـ الآن تبدأ المتعة .

ووثب من السيارة ، وهو يشير إلى الجنود فى العربتين ، بالانتشار حول المبنى الصغير ، ومحاصرتـه بمنتهى الدقـة والصرامـة ، ثم انتقى مجموعةً من الجنود ، هاتفًا :

ـ اتبعونى .

اندفع الجيش المحدود يحيط بالمبنى ، ويقتحمـه بمنتهـى العنف ، وتعالى وقع الأحذيةَ العسكرية الثقيلة على درجات السلم ، حتى الطابق الثانى ، الذى لم يكد يبلغه (كاربـاكوف) ، حتى أطلق رصاصات مسدسه على رتاج الباب الوحيد فيه ، وهو يهتف :

ـ لا تنسوا .. أريده حيًا .

كـان سكان المنزل قد استيقظوا جميعهم ، مع ضوضـاء الاقتحـام العنيـف ، ومـلأ الخـوف ملامحهـم ، وبخاصـة (جوزيف إيتانوف) نفسه ، الذى راح يرتجف كطير مبتل ، داخل معطفه المنزلى ، وهو يقول فى انزعاج شديد :

ـ الرفيق (كارباكوف) ؟! ماذا حدث أيها الرفيق ؟! ولمـاذا تقتحم منزلى على هذا النحو ؟! إننى أحد رجال الـ (كى . جى . بى) ، وأحد رجال الحزب المخلصين ، و ...

ألصق (كارباكوف) فوهة مسدسه بصدغ (إيتانوف) ، وجذب إبرته ؛ ليدلل على جديـة وخطورة الموقف ، وهو يقاطعه قائلاً فى غلظة :



ـ معطف منزلى حريرى ؟! أيبدو لك هذا الترف متناسبًا ، مع عضو بارز فى الحزب الشيوعى ؟!

امتقع وجـه (إيتانوف) ، وشهقت زوجتـه فى رعب ، وهى تضمّ طفليها إلى صدرها ، وزوجها يحدّق فى وجه

(كارباكوف) ، قبل أن يقول ، فى صوت أكثر شحوبًا من وجهه :

ـ إنك لست هنا ، بسبب معطفى المنزلى الحريرى ، أيها الرفيق (كارباكوف) .

أجابه (كارباكوف) بسرعة :

ـ هذا صحيح .

ثم اخترقت ملامحه الغليظة ابتسامة ساخرة ، وهو يضيف .

ـ لقد أتيت لأحمل لك تحيات البريطانيين .

عند سماعه الكلمة الأخيرة ، لم يمتقع وجه (إيتانوف) فحسب ..

لقد غابت منه الدماء تمامًا ، حتى لقد بدا وكأن الرجل قد لفظ أنفاسه الأخيرة بالفعل ، منذ ثلاث ساعات على الأقل ..

أما عيناه ، فقد زاغتا ، ودارتا فى محجريهما ، مع تلك الارتجافة العنيفة المؤلمة ، التى سرت فى كل خلية من خلاياه ، والتى هوى معها قلبه بين قدميه ، وغصّ بها حلقه ، على نحو لم تنجح معه كلمة واحدة ، فى الانفلات من بين شفتيه ، مما منح (كارباكوف) الفرصة ليضيف :

ـ يقولون : إن المعلومات الأخيرة ، التى أرسلتها إليهم ، قد أفادتهم كثيرًا .

وعندئذ صرخت زوجة (إيتانوف) ، بكل رعب الدنيا ، وقد أدركت ما يعنيه هذا :

ـ (جوزيف) !

استدار إليها زوجها ، بوجه ينافس وجوه الموتى ، وعينين احمرتا كالدم ، وهو يحاول أن يقول شيئًا ..

أى شىء ..

ولكن الكلمات كلها اختنقت فى حلقه ، وعجزت عن تجاوز شفتيه ، فأدار بصره فى يأس إلى (كارباكوف) ، وبذل جهدًا خرافيًّا ؛ ليقول فى خفوت شديد :

ـ ليس لها شأن بما حدث .

نقل (كارباكوف) بصره إلى المرأة الشقراء المذعورة ، وإلى الطفلين اللذين انكمشا بين ذراعيها فى رعب ، قبل أن يقول ، بمنتهى الغلظة ، وأسلوبه الخشن الفظ :

ـ هذا سيتوقَّف على تعاونك .

سالت الدموع من عينى (إيتانوف) ، وهو يلقى نظرة أخرى ، على زوجته وطفليه ، ثم يخفض عينيه ، متمتمًا :

ـ أنا رهن إشارتكم .

والتمعت عينا (كارباكوف) فى قوة ..

فقد كان من الواضح أنه قد انتصر على البريطانيين هذه المرة ..

انتصر انتصارًا ساحقًا ..

★ ★ ★

« السوفيت أوقعوا برجلنا فى (موسكو) .. »

نطق مدير مكتب (إم آى ـ ٥) العبارة فى غضب ، داخل مكتب رئيس الوزراء البريطانى ، فى حضور مدير مكتب (إم آى ـ ٦) ، ونائبه (تيم سيلبى) ، الذى ملأت الدهشة وجهه ، وهو يهتف :

ـ بهذه السرعة ؟!

استدار إليه مدير (إم آى ـ ٥) ، وهو يقول فى حدة :

ـ بل قل : فى هذا التوقيت ؟!

تراجع رئيس الوزراء البريطانى فى مقعده ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وهو ينقل بصره بين الرجال ، فى اللحظة التى هتف فيها مدير (إم آى ـ ٦) فى غضب :

ـ ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

أجابه مدير (إم آى ـ ٥) فى حدة :

ـ ابحث أنت عن تفسير آخر .. لقد أبلغناكم ما أرسله رجلنا (جوزيف إيتانوف) بشأن وجود جاسوس سوفيتى ، فى مجلس قيادتكم ، وبعدها مباشرة ، وقبل أن نحصل على اسم ذلك الجاسوس ، ينقض السوفيت على (إيتانوف) ، ويعتقلونه فى مكان سرى .

احتقن وجه مدير (إم آى ـ ٦) ، وهو يقول فى غضب :

ـ هل تعنى أن ...

قاطعه رئيس الوزراء فجأة فى صرامة :

ـ الرجل لا يعنى شيئًا .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف بصرامة أكثر :

ـ ولكنه وأنا نريد تفسيرًا منطقيًا لما حدث ، قبل أن نوجه أية اتهامات .

همَّ مدير (إم آيٍ ـ ٦) بقول شيء ما ، ولكن نائبه (سيلبى) اندفع قائلاً فى حزم :

ـ أنا سأخبرك ما يحسم الأمر تمامًا ، يا سيادة رئيس الوزراء .

والتفت إليه الجميع فى اهتمام ؛ ليلقى هو ما لديه ..

وكان ما لديه مدهشًا ..

بحق .

★ ★ ★

٣ ـ كيف ؟!

● خيم الصمت التام على حجرة رئيس الوزراء البريطانى ، وهذا الأخير ، مع مديرى جهازى المخابرات (إم آى ـ ٥) ، و(إم آى ـ ٦) ، يتطلعون إلى (تيم سيلبى) ، نائب مدير (إم آى ـ ٦) ، الذى التقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ من الناحية العملية ، لا يمكن أن نكون مسئولين ، عن سقوط رجل مكتب (إم آى ـ ٥) فى (موسكو) ؛ ففور علمنا بما أبرق به ، عن وجود جاسوس فى مجلس قيادتنا ، تم التحفُّظ فورًا على كل مديرى مكتبنا ، ومنعهم من الاتصال بأية جهة .

قال مدير (إم آى ـ ٥) فى غضب صارم :

ـ وماذا لو أن آخرين أمكنهم هذا ؟!

سأله (سيلبى) فى سرعة :

ـ أمكنهم ماذا ؟!

قال الرجل فى حدة :

ـ أمكنهم الاتصال بالسوفيت ، والإيقاع برجلنا .

هزَّ (سيلبى) رأسه ، قائلاً فى هدوء مستفز :

ـ هذا مستحيل تمامًا !

لوَّح مدير (إم آى ـ ٥) بسبَّابته فى وجهه ، صائحًا :

ـ هل تريد أن تقول : إنه من المستحيل أن تتسرَّب الأسرار من بين أيديكم ، على الرغم من وجود جاسوس بين قيادتكم ؟!

عاد (سيلبى) يهز رأسه ، وهو يقول :

ـ بل أريد أن أقول : إنه من المستحيل أن نوقع برجل ، نجهل هويته تمامًا .

تراجع مدير (إم آى ـ ٥) بحركة حادة ، كما لو أن جواب (سيلبى) قد أصابه بصفعة قاسية ، فى حين انعقد حاجبا مدير (إم آى ـ ٦) بشدة ، واعتدل رئيس الوزراء البريطانى على مقعده ، متسائلاً فى اهتمام شديد :

ـ ماذا تعنى يا سيِّد (سيلبى) ؟!

أجابه (سيلبى) ، فى هدوء حازم :

ـ أعنى أننا نعلم بوجود جاسوس سوفيتى ، يعمل فى قلب (موسكو) ، لحساب (إم آى ـ ٥) ، ولكنهم لم يخبرونا بأية تفاصيل عنه على الإطلاق ، فكيف يمكن أن نوقع به هكذا ؟!

تألَّقت عينا رئيس الوزراء فى إعجاب ، عبَّر عنه بكلماته ، وهو يتراجع فى مقعده ببطء ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، قائلاً :

ـ أنت على حق تمامًا .

مطَّ مدير (إم آى ـ ٥) شفتيه ، مغمغمًا فى عصبية :

ـ ربما كان على حق ، ولكن ..

قاطعه رئيس الوزراء فى صرامة :

ـ لا يوجد لكن .. هذا يحسم الأمر تمامًا .

تدخَّل مدير (إم آى ـ ٦) ، قائلاً :

ـ المشكلة لا تكمن الآن فى سقوط ، رجل (إم آى ـ ٥) فى (موسكو) ، وإنما فى عدم استطاعتنا ، بعد حدوث هذا ، الحصول على اسم الجاسوس السوفيتى فى قيادتنا .

أشار رئيس الوزراء بيده ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ لو أننى فى موضعك ، لقمت بتغيير القيادات كلها فورًا .

هزَّ (سيلبى) رأسه ، قائلاً :

ـ هذا لن يحل المشكلة يا سيادة رئيس الوزراء ، بل ربما

يزيدها تعقيدًا ؛ فالعمل لدينا يمر بأزمة معوّقة بالفعل ، فى غياب القيادات الأساسية ، وعملية إعداد وتأهيل الصف الثانى ، للصعود إلى الصف الأوّل ، تحتاج إلى وقت طويل ، يمكن أن يستغله السوفيت أسوأ استغلال ، للسيطرة على الساحة كلها .

انعقد حاجبا رئيس الوزراء ، وهو يغمغم :

ـ حقًّا ؟!

تابع (سيلبى) ، دون أن يتوقَّف عند تعليق رئيس الوزراء :

ـ لابد إذن من حسم الأمر ، بمنتهى الدقة ، ومنتهى السرعة أيضًا ، حتى تعود الأمور إلى نصابها ، قبل أن يحتلَّ السوفيت الساحة .

بدا الإعجاب واضحًا ، فى صوت رئيس الوزراء البريطانى ، وهو يقول :

ـ ألديك خطة محدودة فى هذا الشأن ، يا سيِّد (سيلبى) ؟!

أسرع مدير (إم آى ـ ٦) ، يقول فى حزم :

ـ بالتأكيد يا سيادة رئيس الوزراء .. نائبى (تيم سيلبى) لديه خطة عبقرية ، فى هذا الشأن .

ضغط لفظ نائبى هذا ، على نحو مقصود ، وهو يرمق مدير

(إم آى ـ ٥) بنظرة شامتة ، جعلت هذا الأخير يشيح بوجهه ، مهمهمًا بكلمات غير مفهومة ، فى حين شدّ (سيلبى) قامته ، وهو يقول فى رصانة :

ـ خطتى كانت تعتمد على خداع السوفيت ، وإيهامهم أن جاسوسهم لدينا قد سقط فى قبضتنا ، وأننا نقوم باستجوابه بالفعل ، ولكن بعد سقوط رجل (إم آى ـ ٥) فى قبضتهم ، قمت بإضافة جزء آخر إلى الخطة ، حتى يبتلع السوفيت الطعم كاملاً ، ونحصل على أفضل ما يمكننا الحصول عليه منهم .

بدا الاهتمام على وجه مدير (إم آى ـ ٥) ، فى حين تساءل رئيس الوزراء ، فى اهتمام أكثر :

ـ وكيف هذا ؟!

ارتسمت ابتسامة باهتة ، على شفتى (سيلبى) ، وهو يجيب :

ـ سنقنعهم أن جاسوسهم فى مجلس قيادتنا ، قد وقع فى قبضتنا ، ثم سنمنحهم فى الوقت ذاته بديلاً .

ردَّد رئيس الوزراء البريطانى ، فى حذر شديد :

ـ بديلاً ؟!

أجابه (سيلبى) فى سرعة :

- نعم .. سنمنحهم جاسوسًا آخر ، أكثر أهمية وخطورة .

ثم عاد يشدّ قامته ، مضيفًا بمنتهى الحزم :

- أنا ..

وكانت مفاجأة للجميع بالفعل ..

مفاجأة مدهشة ..

★ ★ ★

نفث رجل المخابرات السوفيتى (إيفان جوديسكى) دخان سيجارته ، برائحته النفّاذة القوية ، فى سماء قبو مبنى المخابرات ، فى قلب (موسكو) ، وهو يسأل زميله (يورى كارباكوف) ، فى برود عجيب :

- هل اعترف ؟!

ابتسم (كارباكوف) فى ثقة ، وهو يشير بيده ، قائلاً :

- لم يكن يملك سوى هذا .. أنت تعرف وسائلنا المدهشة ، وقدرتنا الفريدة ، على إقناع زبائننا ، بالإدلاء بكل ما لديهم .

مطّ (جوديسكى) شفتيه ، قائلاً بنفس البرود :

- هل ستخبرنى ؟!

ثم أشار بيده ، متسائلاً :

- المهم الآن هو : هل أخبرهم باسم جاسوسنا هناك ، أم أننا قد تحرّكنا فى الوقت المناسب ؟!

تنهّد (كارباكوف) فى عمق ، قائلاً :

- إنه يؤكّد أنه قد أخبرهم بوجود جاسوس خطير ، فى مجلس قيادة (إم آى - ٦) فحسب ، دون أية تفاصيل .

سأله (جوديسكى) فى اهتمام :

- وهل تعتقد أنه صادق فى هذا ؟!

مطّ (كارباكوف) شفتيه هذه المرة ، وهو يجيب :

- من العسير أن يكذب المرء بأصابع مهشّمة ، وخاصة عندما يدرك أن الوسيلة الوحيدة ، لنجاة زوجته وولديه ، هى الصدق التام .

غمغم (جوديسكى) :

- عظيم .

ولكن (كارباكوف) تابع فى ضيق :

ـ ولكن هذا لا يقنع القيادة ، التى تصرّ على إنهاء عملية جاسوس (لندن) هذه فورًا ، باعتبار أن مجرّد علم البريطانيين بالأمر ، يعرِّضه إلى خطر داهم ؛ إذ إن أمره سينكشف حتمًا ، إن عاجلاً أو آجلاً ، من وجهة نظرهم ، وهم يرفضون المجازفة بمصيره ، تحت أية ظروف .

انعقد حاجبا (جوديسكى) ، وهو يقول :

ـ إلى هذا الحد ؟!

أومأ (كارباكوف) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ إنه أفضل وأهم رجالهم ، منذ أكثر من ربع قرن .

ارتفع حاجبا (جوديسكى) بدهشة ، لم تلبث أن تحولّت إلى فضول واهتمام واضحين ، وهو يميل نحو (كارباكوف) ، ليقول :

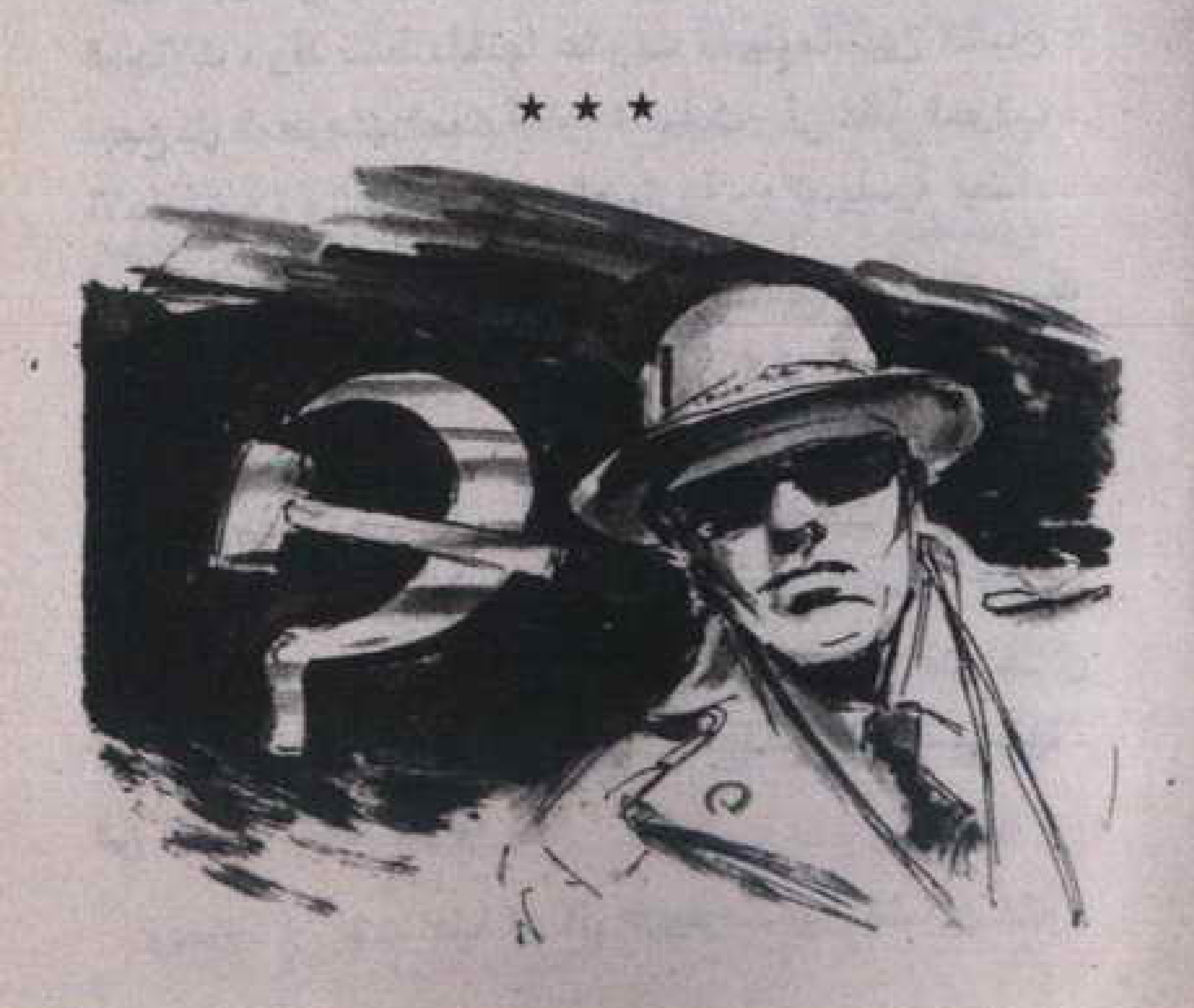
ـ هل لاحظت أنك لم تخبرنى أبدًا باسم جاسوسنا هناك ، فى قلب مجلس قيادة (إم آى ـ ٦) ؟!

ولم ينبس (كارباكوف) بحرف واحد ، وإن انطلق ذهنه يسترجع تفاصيل ذلك السر ، الذى اعتبرته المخابرات السوفيتية من أخطر أسرارها ، طوال ربع القرن ..

السر الغامض المثير ..

إلى أقصى حد .

* * *



٤ـ رحلة ذكريات ..

● بدأ الأمر كله فى النصف الثانى من خمسينات القرن العشرين ..

فى تلك الفترة ، وعلى الرغم من الحرب الخفية السرية ، بين جهازى المخابرات ، السوفيتى والبريطانى ، كانت السفارة البريطانية فى (موسكو) تموج بنشاط جم ، فى كل المجالات ، وقد نشط داخلها عشرات الدبلوماسيين الشبان ، لجمع كل المعلومات الممكنة عن السوفيت ، فى كافة الجوانب ، الاجتماعية ، والاقتصادية ، والعسكرية ، والسياسية أيضًا ..

ولأن البريطانيين يتميزون بالدقة الشديدة ، وبالتمسك بالروتين والقواعد ، إلى أقصى حد ، كانت رواتب شباب الدبلوماسيين فى سفارتهم منخفضة ، إذا ما قورنت بأسعار الصرف الرسمية ، التى يعترف بها السوفيت ، فى نفس الوقت الذى يمكن أن تساوى فيه الرواتب نفسها ثروة معقولة ، إذا ما تم تحويلها إلى روبلات سوفيتية ، من خلال الأسواق السرية أو السوداء ، كما اصطلح على تسميتها ، فى كل بلاد العالم تقريبًا ..

ويمكننا أن نؤكد هنا أن كل الدبلوماسيين الشبان كانوا

يلتزمون بأسعار الصرف السوفيتية الرسمية ، خاصة وأن عقوبة تجاوز هذا كانت تصل إلى الإعدام ، فى تلك الفترة من تاريخ الاتحاد السوفيتى ..

وعلى الرغم من هذا ، كان هناك عدد محدود من أولئك الدبلوماسيين الشبان ، يجازف باللجوء إلى الأسواق السوداء لتغيير العملة ، فى محاولة لزيادة دخله ، أو لادخار بعض راتبه ، على نحو أو آخر ..

ومن بين أولئك المتجاوزين ، كان رجلنا ..

ونستطيع أن نقول هنا : إن السوفيت قد وضعوا أعينهم عليه ، منذ لحظاته الأولى ، فى سفارة (بريطانيا) فى (موسكو) ؛ فقد كان شابًا نابهًا ، تومض عيناه بالذكاء ، ويوحى نشاطه بأنه سيكون له شأن كبير فى المستقبل ..

وهذا ما أكده الخبراء السوفيت ، فى جهاز مخابراتهم ، بعد أن درسوا ملفه بمنتهى الدقة ..

لذا فقد دفعوا فى طريقه من يهمس فى أذنه ، بأنه ليس من العسير أن يلجأ إلى تلك السوق السوداء ؛ لتغيير راتبه ..

ثم أكد له ذلك الهامس ، أنه سيتولى الجزء الخطير بنفسه ..

ولثلاثة أشهر متصلة ، كان ذلك الهامس يتسلَّم راتب الدبلوماسى الشاب ، بالجنيهات الإسترلينية ، ثم ينقده مبلغًا كبيرًا من الروبلات السوفيتية ، فى صباح اليوم التالى مباشرة ، وبزيادة تفوق ضعفى ما يمكن أن يحصل عليه ، من خلال التحويلات الرسمية ..

ولقد أخفى الدبلوماسى الشاب هذا عن رفاقه ورؤسائه بالطبع ، ولم يشر إليه بأى حال من الأحوال ، وإن بدأ يستمتع باللعبة ، التى جعلته يكتفى بتحويل نصف راتبه فحسب ، فى الأشهر الأربعة التالية ، ويحتفظ لنفسه بالنصف الآخر بعملة بلاده ، وقد أسعده أن يحقق ذلك الثراء المحدود ، دون أن يتجاوز قوانين بلاده هو ، وليس قوانين الدولة التى يعمل بها ..

وعندما اطمأن السوفيت إلى أنه قد استراح تمامًا للأمر ، واعتاد الحصول على ذلك المقابل الفائق ، قرَّروا الانتقال إلى الخطوة التالية ..

وفى الشهر الثامن ، حصل الهامس على راتب الدبلوماسى الشاب ، وغادر السفارة فى المساء كالمعتاد ..

ولكنه لم يعد إليها فى الصباح التالى ..

ولا حتى فى المساء ..

لذا فقد شعر الدبلوماسى الشاب بقلق عارم ، جعله واضح التوتر طوال النهار ، ودائم السؤال عن ذلك الهامس ، على نحو أدهش زملاءه كثيرًا ..

وفى نهاية اليوم ، جاءه اتصال قصير من الهامس ..

اتصال اعتذر فيه عن عدم الحضور ، لأسباب خارجة عن إرادته ، ثم طلب من الدبلوماسى الشاب أن يمرّ على متجر صغير لألعاب الأطفال ، فى قلب (موسكو) ؛ ليلتقط روبلاته السوفيتية ؛ بحجة أنه قد منح الجنيهات الإسترلينية بالفعل لصاحبه ، وليست لديه أية فرصة للمرور به ، خلال الأيام الخمسة التالية ..

ولقد شعر الدبلوماسى الشاب بالقلق بالفعل ، إلا أنه لم يكن لديه خيار آخر ..

إما أن يذهب لالتقاط نقوده ، أو يخسرها لوقت طويل ..

ولقد درس الشاب الموقف ، ثم تعاون قلقه وطمعه ؛ لإقناعه بأنه لا توجد أية مخاطرة فى الموقف ، وأنه فقط سيلتقط نقوده ، ثم ينصرف بأقصى سرعة .. وهكذا ، ذهب الدبلوماسى الشاب إلى متجر الألعاب ..

وعلى الرغم من توتره فى البداية ، فقد سار كل شىء

على ما يرام ، منذ دلف إلى المكان ، وذكر لصاحبه اسم الهامس ، فاستقبله الرجل بالترحاب ، ثم انتحى به جانبًا ، وسلمه مظروفًا يحوى الروبلات السوفيتية ، و ...

وفجأة ، وبينما يستعد الدبلوماسى الشاب للانصراف ، أطبقت الشرطة على المكان ..

وبسرعة وعنف ، وجد الشاب نفسه داخل سيارة شرطة ، مكبلاً بالأغلال ، ويحيط به عملاقان غليظان ، تحمل ملامحهما كل الغلظة والخشونة ، والسيارة تنطلق به إلى سجن (موسكو) ، بتهمة الاتجار غير المشروع فى العملة ، وهى جريمة تصل عقوبتها إلى الإعدام ..

وانهار الدبلوماسى الشاب تمامًا ..

فحتى لو أعلن هويته ، وتشبَّث بحصانته الدبلوماسية ، فسيعنى هذا إبلاغ سفارته بما ارتكبه ، وضياع مستقبله الدبلوماسى إلى الأبد ..

ولكن من المؤكَّد أن ضياع المستقبل أهون من ضياع الحياة نفسها ..

لذا فقد اتخذ قراره ، وكل ذرة فى كيانه تتمزَّق ألمًا ومرارة .. وفى سجن (موسكو) ، وأمام قاضى التحقيقات ، ذى الملامح القاسية ، أعلن الشاب هويته وجنسيته ..

ولكن القاضى لم يبال بما قاله ..

لقد بدا وكأنه حتى لا يسمعه ، وهو يلقى جواز سفره الدبلوماسى جانبًا ، ويطلب من رجاله إلقاءه فى السجن ..

واحتج الدبلوماسى الشاب ، وصرخ ، وثار ..

ولكن أحدًا لم يهتم بكل ما يفعله ..

وتم إلقاؤه فى السجن بالفعل ..

وهنا بلغ هلعه مبلغه ..

فالسجن الذى ألقوه فيه لم يكن سجنًا عاديًّا ، وإنما كان سجنًا من نوع خاص جدًّا ..

سجن تتمنى الموت ، عن البقاء فيه ليوم واحد ..

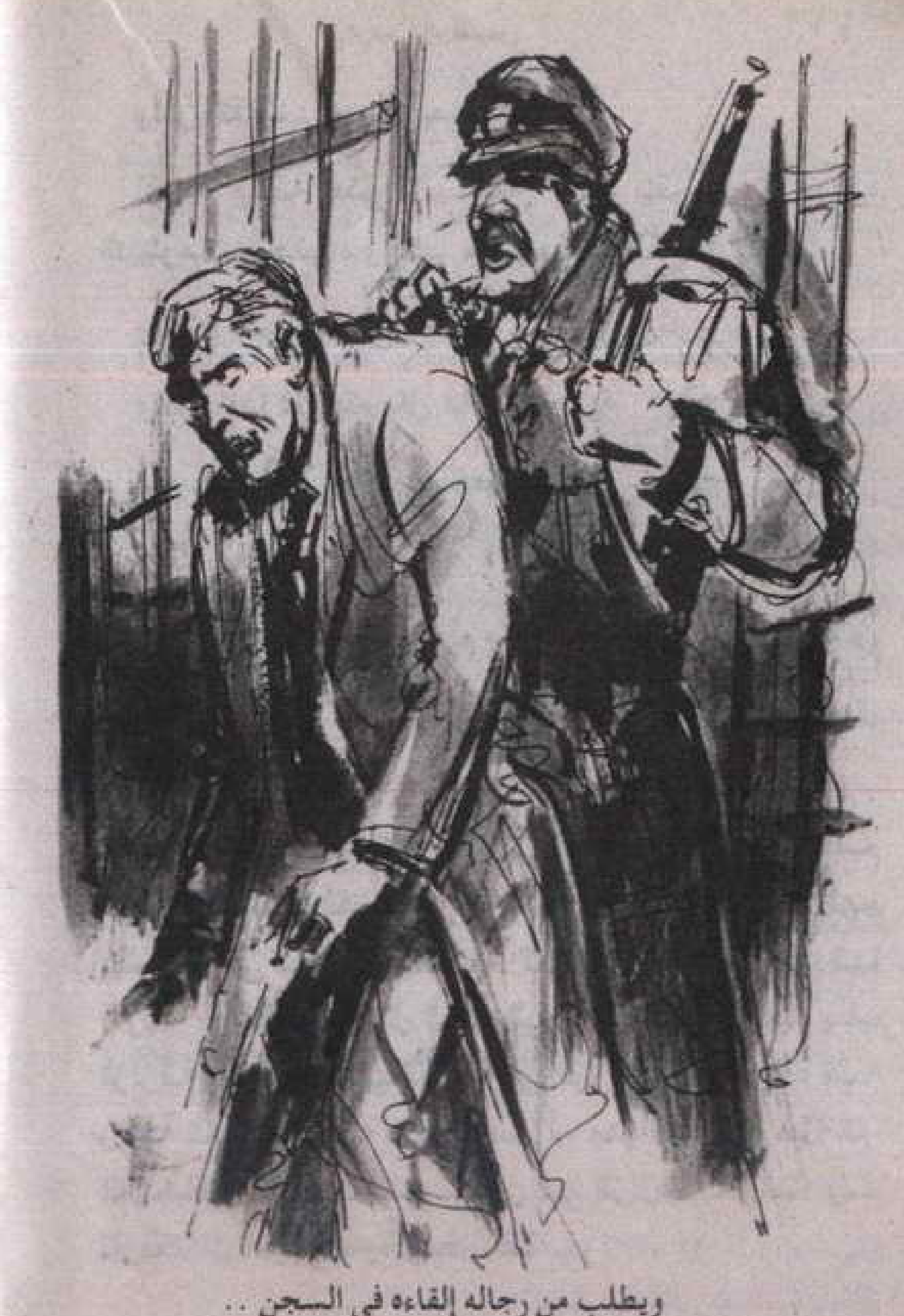
فالزنزانة الحقيرة القذرة ، التى ألقوه فيها ، كانت تضمّ ستة عشر سجينًا آخر ، على الرغم من صغر حجمها ، وكلهم يجلسون على ألواح من الخشب ، تبرز من ثلاثة من جدرانها الأربعة ، ويتطلعون طوال الوقت إلى الجدار الرابع ، حيث باب الزنزانة ، التى يتوسَّطها تمامًا برميل من الخشب ، تنبعث منه رائحة كاد يفقد وعيه منها ، قبل أن يدرك أن البرميل هو المرحاض الوحيد ، لكل سجين فى الزنزانة ، وأنه يتم تفريغه كل أسبوع مرة واحدة فقط ..

أما لماذا يتطلّع الكل طوال الوقت إلى الباب ، فهذا ما أدركه ، منذ لحظة دخوله إلى الزنزانة ؛ إذ لم يكد الحارس الضخم يفتح الباب ، وقبل حتى أن يلقى به داخلها ، سمعه يصرخ بالروسية فى وحشية :

- أنت لا تنظر إلى النافذة .

ثم فوجئ به ينقض كالوحش على أحد السجناء ، وينتزعه من مكانه ، والسجين المسكين يصرخ معلنًا أنه كان يسعل فحسب ، ثم طلب الرحمة ، وانهار ، والوحش الضخم يسحبه فى قسوة مخيفة إلى خارج الزنزانة ، التى أغلق بابها بمنتهى العنف .. ومن الخارج تعالت أصوات ضربات وحشية ، ممتزجة بصراخ السجين المسكين ، الذى لم تلبث صرخاته أن تحولّت إلى تأوهات ضعيفة ، قبل أن تسكت تمامًا ..

وسأل الشاب فى ارتياع عما يحدث ، فأخبره أحد السجناء فى رعب ، أن هذا هو مصير أى شخص ، يرفع عينيه ولو لحظة واحدة ، عن تلك النافذة الصغيرة أعلى باب الزنزانة ، والتى يفتحها الحارس المخيف فى أية لحظة ، من الليل والنهار ؛ ليظفر بسجين بائس ، أرهقه التعب ، أو هزمه النوم ، فلم يعد ينظر إلى النافذة الصغيرة ، مما يمنحه الحق فى عقابه ، وممارسة كل نزعاته السادية معه ..



ويطلب من رجاله إلقاءه فى السجن ..

وعلى الرغم من الرعب الشديد ، الذى ملأ كل ذرة من كيان الدبلوماسى الشاب ، فقد تكرَّر هذا الأمر ثلاث مرات فى ذلك اليوم ..

الحارس يفتح النافذة فجأة ، ثم يصرخ :

ـ أنت لا تنظر .

وينقضُّ على أحد السجناء ، وينتزعه من مكانه إلى الخارج ..

وتنبعث أصوات الضربات والصرخات ..

وبعدها السكون المطبق ..

وكرد فعل طبيعى ، لم يرفع الشاب عينيه عن النافذة لحظة واحدة ، على الرغم مما يمثله هذا من ألم ومهانة ومرار ..

وقبل أن ينتصف الليل ، أى بعد أقل من خمس ساعات على سجنه فى هذه الزنزانة الرهيبة ، أصبح الدبلوماسى الشاب مستعدًا للخروج من المكان بأى ثمن ..

ومع كلمة أى ثمن هذه ، حان دور المرحلة التالية من اللعبة ..

فمع منتصف الليل تمامًا ، فتح الحارس الوحشى تلك النافذة الصغيرة فجأة ، وصرخ :

ـ أنت لا تنظر .

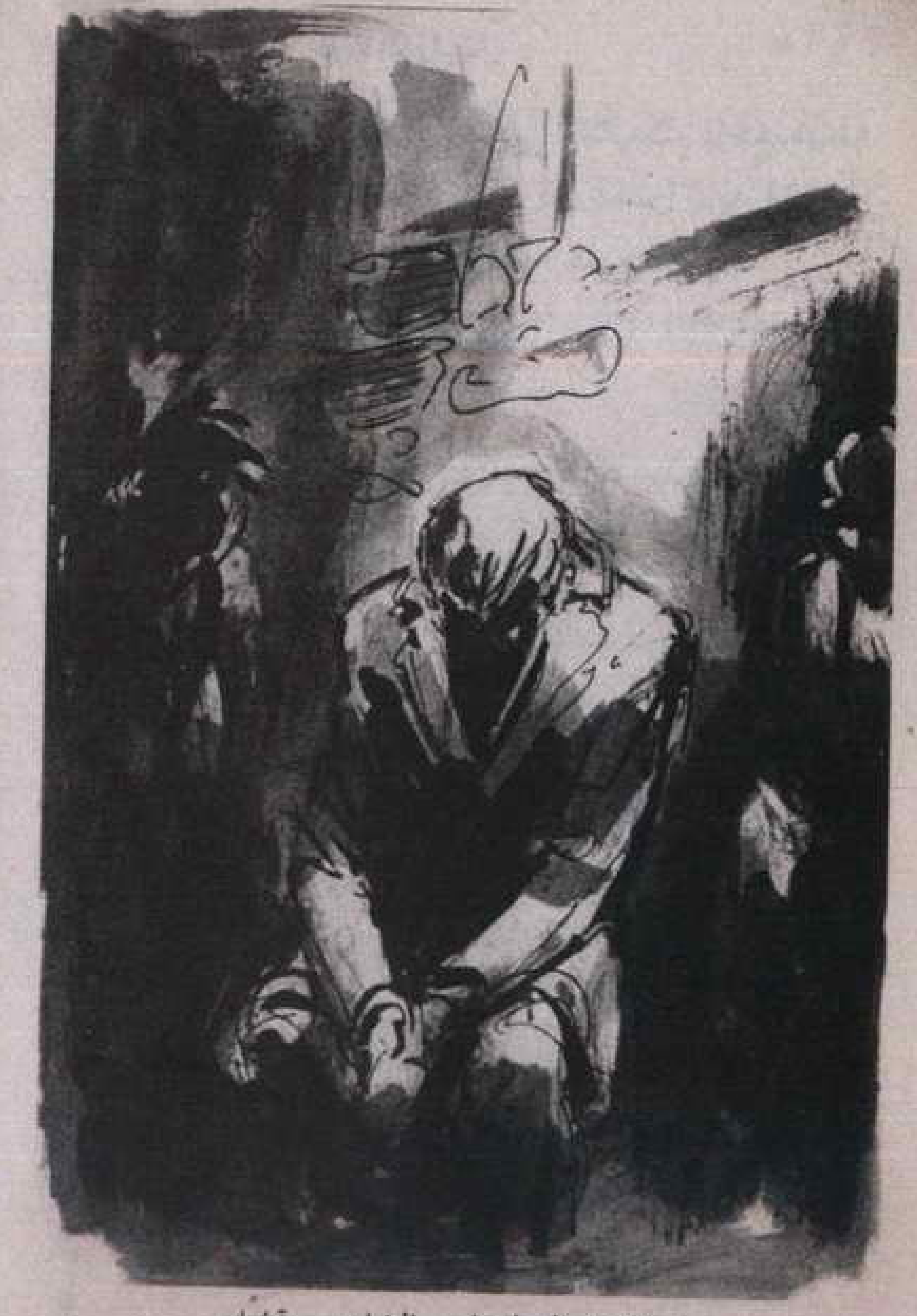
وعلى الرغم من أن الدبلوماسى الشاب لم يرفع عينيه عن النافذة الصغيرة لحظة واحدة ، فقد انقضّ عليه الحارس الضخم ، وانتزعه من مكانه ، ودفعه خارج الزنزانة ..

وهنا انهار الدبلوماسى الشاب ..

تمامًا .

* * *





وهنا انهار الدبلوماسى الشاب .. تمامًا ..

٥ ـ الترويض ..

● « إنك لم تخبرنى بعد ، من رجلنا فى قلب المخابرات البريطانية ! »

ألقى رجل المخابرات السوفيتى (إيفان جوديسكى) السؤال ، على مسامع زميله (يورى كارباكوف) ، فى فضول ولهفة ، يتعارضان تمامًا مع طبيعته الباردة المتحفظة ؛ لينتزع هذا الأخير من ذكريات ما قرأ وعرف ، عن أسلوب تجنيد ذلك البريطانى ، منذ ما يقرب من ربع القرن ، للعمل لحساب المخابرات السوفيتية ، فالتفت إليه (كارباكوف) ، وتطلّع إليه بنظرة خاوية ، قبل أن يقول :

ـ لم يحن وقت هذا بعد .

انعقد حاجبا (جوديسكى) ، وهو يقول :

ـ المفترض أننا فى رتبة واحدة .

أجابه (كارباكوف) فى حزم :

ـ أنت تعلم أن هذا لا يصنع فارقًا .

تراجع (جوديسكى) ، متمتمًا :

ـ بالتأكيد .

وصمت لحظة ، نفث خلالها دخان سيجارته السوفيتية ، قبل أن يسأل :

ـ أعتقد أنه لم يستسلم لعملية تجنيده هذه بسهولة .

هزّ (كارباكوف) رأسه ، قائلاً :

ـ لحظتها لم يكن لديه الخيار .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة :

ـ من الناحية النفسية على الأقل .

نطقها ، وعقله يسبح مرة أخرى بعيدًا ..

فى بحر الذكريات ..

★ ★ ★

عندما انتزع ذلك الحارس الضخم ، الدبلوماسى الشاب ، من داخل الزنزانة الحقيرة ، فى قلب سجن (موسكو) استعاد ذهن الشاب تلك الصرخات الرهيبة ، التى أطلقها مَنْ قبله ، بعد أن انتزعهم هذا الوحش من الزنزانة ، وتصوَّر أن مصيره لن يختلف كثيرًا عنهم ، وخاصة عندما ألقاه الحارس الرهيب أرضًا ، ورفع قبضته القوية ، و ...

« كفى يا (جوركى) . »

انطلق الهتاف الصارم فجأة ، لتتجمَّد قبضة الحارس الضخم فى الهواء ، قبل أن تهوى على فك الدبلوماسى الشاب ، الذى استدار بكل لهفة الدنيا إلى مصدر الصوت ؛ ليقع بصره على رجل ضخم آخر ، فى ثياب مدنية ، يقف على مسافة ثلاثة أمتار منه ، فى وقفة صارمة حازمة ، وهو يواصل بلهجة آمرة قاسية :

ـ أريده فى حجرتى .. فورًا .

قالها ، واستدار يدلف إلى حجرة قريبة ، فانقضّ الحارس مرة أخرى على الشاب ، وانتزعه من مكانه ثانية ، ودفعه أمامه إلى حجرة الرجل ، الذى كان يجلس خلف مكتب بالغ الأناقة ، داخل حجرة فاخرة ، لا يمكن أن يتصوَّر المرء وجودها هناك ، على بعد أمتار قليلة من تلك الزنزانة الرهيبة ..

وفى هدوء بالغ ، أشار إليه الرجل ، قائلاً بلهجة آمرة :

ـ اجلس .

جلس الدبلوماسى البريطانى الشاب على مقعد وثير للغاية ، لين إلى حد مدهش ، وخاصة عند مقارنته بلوح الخشب الجاف ، الذى كان يجلس عليه ، طوال الساعات الخمس السابقة ، داخل الزنزانة الحقيرة ..

ولدقيقتين كاملتين ، ظلّ السوفيتى الضخم يتطلّع إليه فى صمت ، قبل أن يشير إلى الحارس ، الذى تراجع فى سرعة ، وأغلق الباب خلفه فى حرص وهدوء ليتركهما وحدهما داخل الحجرة الأنيقة ..

وفور خروج الحارس ، نهض المدنى الضخم من مقعده ، والتقط زجاجة من جواره ، وهو يقول :

ـ أظن هذا مشروبك المفضل .

كانت الزجاجة تحوى مشروبه المفضل بالفعل ، لذا فقد تساءل الشاب فى حذر :

ـ وكيف تعرف هذا ؟!

ودون أن يبتسم الرجل ، قال فى شىء من السخرية :

ـ إننا نعرف كل شىء عنك .

قرن قوله هذا بسيل من المعلومات ، ألقاه فى سرعة على مسامع الدبلوماسى الشاب ، الذى فغر فاه فى ذهول ، وهو يستمع إلى اسمه الكامل ، وتاريخ أسرته العريقة ، وهواياته ، وانتماءاته ، وحتى رقم هويته البريطانية ..

وبكل ذهوله ، هتف :

ـ أكان هذا مدبّرًا ؟!

أجابه الرجل فى هدوء ، وهو يناوله كأسًا من مشروبه المفضّل :

ـ أنت خالفت قانون النقد ، وهناك شهود وأدلّة على هذا ، أبسطها أن الأوراق الرسمية تنفى إجراءك لأية تحويلات نقدية رسمية ، خلال الأشهر الثمانية الأخيرة ، على الرغم من أنك تنفق الكثير من الروبلات السوفيتية .

وعاد إلى مقعده ، وهو يتابع بنفس الهدوء :

ـ ومن الناحية الرسمية ، ستجد أن عملية إلقاء القبض عليك ، فى ذلك المتجر الصغير ، تم تسجيلها بالصوت والصورة ، وأن وزير خارجيتنا قد أصدر موافقة باعتقالك ، كما تقتضى اللوائح الدبلوماسية ، وكل شىء يسير قانونيًا تمامًا .

غمغم الشاب فى توتر شديد :

ـ يمكن لسفارتى أن تعترض على اعتقالى .

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ بالطبع .. هذا إجراء قانونى تمامًا .. سفارتك لها الحق فى أن تعترض .. وكذلك دولتنا .. سنرفض اعتراضهم ، وسنبرز كل ما لدينا من أدلة وبراهين ، على ارتكابك جريمة ، نعتبرها هنا خيانة عظمى لاقتصادنا ، ونعاقب مرتكبها ، مواطنًا كان أم أجنبيًا ، بالإعدام ، وسنستخدم كل ما لدينا من وسائل إعلام ،

وصحف ، ونظم رسمية ودبلوماسية ، وستصبح فضيحة كبرى لك ، ولدولتك .. فضيحة سينتهى معها مستقبلك المهنى تمامًا ، وستعود بعدها إلى دولتك ، التى ستبذل قصارى جهدها حتمًا لإنقاذك ، وقد تكللت بالخزى والعار ، حتى إنك ستفضّل الانتحار .

ثم تراجع فى مقعده بمنتهى الهدوء ، وارتشف رشفة من كأسه ، مضيفًا :

ـ وهذا بالطبع لن ينتهى بسرعة ؛ فطبيعة النظم والإجراءات ، التى يتبعها الدبلوماسيون ، هى البطء الشديد ، والروتين المعقّد ، وأنت تعلم أن دولتينا تتميزان بهذا وذاك ، والنتيجة أنك ستظل فى زنزانتك لشهر أو شهرين .. فقط .

ونهض من مقعده فجأة ، هاتفًا :

ـ أيها الحارس .

قبل حتى أن ينتهى هتافه ، اقتحم الحارس الحجرة ، قائلاً بمنتهى الغلظة والخشونة والشراسة :

ـ أوامرك يا سيّدى .

انفرجت شفتا الرجل ؛ ليقول شيئًا ما ، إلا أن الدبلوماسى الشاب هبَّ من مقعده ، بكل توتر الدنيا ، هاتفًا :

ـ أرجوك .

أدار الرجل عينيه إليه فى هدوء ، فتابع ، وهو يخفض عينيه فى انكسار :

ـ لا أريد العودة إلى تلك الزنزانة .

وصمت لحظة ، لم يسمع خلالها أى تعليق ، فكرّر فى مرارة :

ـ أرجوك .

تطلّع إليه الرجل بضع لحظات ، حتى أيقن من أن لعبته قد أفلحت إلى حد كبير ، فقال للحارس فى صرامة :

ـ ليس الآن .

تراجع الحارس ، وأغلق الباب خلفه مرة أخرى ، وعاد الرجل يجلس خلف مكتبه ، بنفس الهدوء العجيب ، وقال للشاب :

ـ اجلس .

أطاعه الدبلوماسى الشاب فى آلية ، وعلى نحو يوحى بالخضوع والاستسلام الكاملين ، فظهر شبح ابتسامة باهتة ، فى ركن شفتى الرجل ، ثم لم يلبث أن تلاشى فى سرعة ، وهو يعاود النهوض ، ويتقدَّم نحو الشاب ، قائلاً فى هدوء :

ـ الأمريكيون يملئون بلادك ، منذ انتهت الحرب العالمية الثانية .. أليس كذلك ؟!

حاول الشاب أن يكون حذرًا ، بقدر ما أمكنه ، وهو يقول :

ـ إنهم أصدقاء ، و ...

قاطعه الرجل فى صرامة :

ـ خطأ .

أطبق الشاب شفتيه على الفور ، فتابع الرجل بمنتهى الحزم :

ـ الأمريكيون أعداؤنا وأعداؤكم أيضًا ، حتى وإن تظاهروا بالعكس .. انظر ما الذى فعلوه بكم ، بعد نهاية الحرب .. أنسيت كيف تعاملوا معكم من منطلق القوة ، فى حرب (السويس) ، عام ١٩٥٦م .. إنهم أعداء لنا معًا .

ثم وضع يده على كتفه ، مستطردًا :

ـ لذا ، ينبغى أن نتعاون معًا ؛ لنتصدَّى لهم ..

وهنا تصوَّر الشاب أنه قد فهم المطلوب ..

ولكن الواقع أن هدف الرجل الحقيقى كان يختلف .. يختلف تمامًا .

* * *

٦ ـ الهدف الحقيقى ..

● تراجع رئيس الوزراء فى مقعده ، فى البناء رقم عشرة ، من شارع (داوننج) ، مقر رياسة الوزراء البريطانية فى (لندن) ، وهو يتطلع فى دهشة ، شاركه إياها مديرا (إم آى ـ ٥) ، و(إم آى ـ ٦) إلى نائب الأخير (تيم سيلبى) ، فى ذلك اليوم من بدايات الثمانينات ، مما جعل (سيلبى) يقول بابتسامة هادئة :

ـ أعتقد أن الدهشة العارمة ، التى أصابتكم أيها السادة ، هى أكبر دليل على إمكانية نجاح خطتى .

هتف به رئيسه فى استنكار :

ـ أية خطة ؟! هل تتصوَّر أن السوفيت يمكن أن يصدقوا ، أنك من الممكن أن تعمل لحسابهم ؟!

هزَّ (سيلبى) رأسه نفيًا ، قبل أن يقول :

ـ بل سيدهشهم هذا ، وسيستنكرونه حتمًا ، كما استنكرتموه أنتم ، إلا أنهم ، ومهما كان انفعالهم ، سيجدون أنفسهم أمام احتمالين ، لا ثالث لهما ، فإما أننى أرغب بالفعل فى التعاون معهم ؛ لأسباب يمكننا أن نفتعلها هنا ، ونتركهم يعثرون عليها ، فى أثناء بحثهم للتأكد من صحة عرضى ، أو أننى أسعى لخداعهم ، على نحو لا يتفق قط مع أية قواعد معروفة ، فى عالم الجاسوسية ، فلو أنكم فى موضعهم ، أى احتمال كنتم ستميلون إليه أكثر .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة ، قبل أن يحك رئيس الوزراء ذقنه بسبابته ، قائلاً فى بطء :

ـ بالنسبة لى ، سأميل إلى الاحتمال الأول ، لو تمت تغطيته بالمهارة الكافية ، ولكننى لست أدرى ما الذى سيذهب إليه المحترفون .

مطَّ مدير (إم آى ـ ٥) شفتيه ، وهو يقول :

ـ بالنسبة لى ، لن أصدق رغبته ، أو أقتنع بها بسهولة .

أسرع مدير (إم آى ـ ٦) يقول فى حماسة :

ـ وستحاول التيقن منها ، دون أن ترفض العرض .. هذا ما سنفعله ، لو كنا فى موضعهم .

مال رئيس الوزراء إلى الأمام ـ يسأله فى اهتمام :

ـ أأنت واثق ؟!

أجابه بنفس السرعة :

ـ ما من جهاز مخابرات ، فى العالم كله ، يمكن أن يضيع فرصة نادرة كهذه .

تردَّد مدير (إم آى ـ ٥) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ بالتأكيد .

نقل رئيس الوزراء بصره ، بين الرجال الثلاثة ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

ـ هل تعتقد أن باستطاعتك خداعهم يا (سيلبى) ؟!

أجابه (سيلبى) فى رصانة :

ـ سأجعلهم يتصوَّرون أننى إما مجنون أو مخلص تمامًا .

سأله رئيسه هذه المرة :

ـ وكيف هذا ؟!

صمت (سيلبى) بضع لحظات ، وكأنما يعيد ترتيب الأمر كله فى رأسه ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ لن أقدِّم لهم عرضى هنا .

سأله رئيس الوزراء :

ـ وأين ستقدِّمه لهم إذن ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ هناك .

حدَّق الرجال الثلاثة فى وجهه بمنتهى الدهشة ، فتابع بكل الحزم :

ـ فى (موسكو) .

وعلى الرغم من أن الجواب متوقَّع تمامًا ، فقد بدا وكأنـه قد صدم ثلاثتهم ؛ حتى إن مدير (إم آى - ٥) هتف مستنكرًا :

- هذا مستحيل !

أضاف مدير (إم آى - ٦) فى قلق :

- أنت تعلم أن النظام يحتم عدم مغادرتك البلاد ، دون تصريح رسمى ، ما دمت أحد رجال المخابرات البريطانية .

أشار (سيلبى) بسبَّابته ، قائلاً :

- إلا لو سافرت فى مهمة رسمية .

سأله رئيس الوزراء وكأنما كان يتوقَّع السؤال :

- مثل ماذا ؟!

أجابه (سيلبى) فى هدوء :

- سنجد ألف سبب وسببًا .

عاد رئيس الوزراء يتراجع فى مقعده ، وهو يتطلَّـع إليـه طويلاً فى صمت ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً فى حزم :

- ابق يا مدير (إم آى - ٦) .. أريد أن أتحدث إليك بعض الوقت .. وحدنا ..

كان هذا إشارة إلى مدير (إم آى - ٥) و(سيلبى) بالانصراف ،

ولقد التقطاها على الفور ، وغادرا المكان ، الذى لم يكد يقتصر على رئيس الوزراء ، ومدير (إم آى - ٦) ، حتـى اعتـدل هذا الأخير ، متسائلاً فى اهتمام :

- ما رأيك فى خطته ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

- مجنونة .

ثم صمت لحظة ؛ ليضيف بابتسامة إعجاب :

- ولكنها عبقرية بحق .

وافقه رئيس الوزراء بإيماءة من رأسـه ، ونهض من خلف مكتبه ، قائلاً :

- أهو دائمًا بهذه البراعة ؟!

اتسعت ابتسامة الرجل ، وهو يقول :

- نعم .. دائمًا .

ربَّت رئيس الوزراء على كتفه ، قائلاً :

- اتخذ إذن كل الاحتياطات اللازمة ؛ لضمان سلامته ، فمن الخطأ خسارة رجل مثله :

سأله مدير (إم آى - ٦) فى اهتمام بالغ :

- أيعنى هذا أن سيادتكم قد وافقتم على تنفيذ العملية ؟!

ابتسم رئيس الوزراء ، قائلاً :

- بالتأكيد .

وكان هذا أشبه بتوقيع رسمى ..

توقيع على قرار تنفيذ العملية ..

أغرب عملية ، فى تاريخ جهاز المخابرات البريطانية .

على الإطلاق ..

★ ★ ★

« هل تريد منى أن أتجسَّس على الأمريكيين فى (بريطانيا) ؟! »

ألقى الدبلوماسى الشاب السؤال فى حذر على مسامع الرجل الضخم ، داخل تلك الحجرة الأنيقة ، فى سجن (موسكو) ، فى تلك الفترة من منتصف الخمسينات ، فربَّت الرجل على كتفه فى هدوء ، قبل أن يجلس إلى جواره ، قائلاً :

- ما نريده منك ، هو أن تتعاون معنا ، ضد من نعتبرهم أعداءنا وأعداءكم ، وهذا ليس خيانة لوطنك .. أليس كذلك ؟!

صمت الشاب طويلاً ، وهو يدرس الأمر فى ذهنه ، قبل أن يلقى جوابه ..

ولأن خصمه محترف فى مجاله ، فقد أدرك ما يعانيه ، ولاذ بالصمت ؛ ليمنحه فرصة دراسة الأمر وتقييمه ..

وفى ذهن الشاب ، كانت هناك خطة تتكوَّن ..

خطة تعتمد على إبداء موافقته ؛ للخروج من هذا المكان ، والعودة إلى سفارته ، وبعدها يمكنه أن يتنصَّل من كل هذا ، ويعود إلى وطنه سالمًا ..

لحظتها ، ولأنه لم يكن بعد رجل مخابرات ، بدت له الخدعة عبقرية ومتقنة ، على نحو ضاعفه شعور اليأس فى أعماقه ، فاعتدل ، قائلاً :

- أنا مستعد .

كان يتوقَّع حماسة من الرجل ، إلا أنه لم يحظ بها أبدًا ، فقد ظلَّ الضخم هادئًا ، وهو يقول فى بساطة :

- حقًّا ؟

قالها ، وهو يتطلَّع إلى عينيه مباشرة ، على نحو جعل الدبلوماسى الشاب يقول فى عصبية واضحة :

- أينبغى أن أقسم على هذا ؟!

ظل الرجل يتطلّع إلـى عينيه فى صمت ، بضع لحظات أخرى ، قبل أن يجيب فى اقتضاب شديد :

ـ كلاً .

ثم نهض ، واتجه إلى مكتبه ، مضيفًا :

ـ ولكن ينبغى أن توقِّع بعض الأوراق ..

واتسعت عينا الشاب عن آخرهما ..

فالآن .. والآن فقط ، أدرك أنه قد تورَّط بالفعل فى هذا المستنقع الرهيب القذر ..

وحتى النخاع ..

★ ★ ★



٧ـ الخطـة ..

● ارتسمت ابتسامة باهتة ، على شفتى رجل المخابرات السوفيتى (يورى كارباكوف) ، وهو يطالع البرقية السـرية ، التى وردت من (لندن) منذ دقائق قليلة ، ثم لَوَّحَ بهـا أمـام زميله (إيفان جوديسكى) ، وهو يقول :

ـ أنباء مدهشة من (لندن) .

سأله (جوديسكى) ، فى برود :

ـ أية أنباء ؟!

دسّ البرقية فى جيبه ، قائلاً :

ـ نائب مدير مكتب المخابرات البريطانيـة (تيم سيلبى) سيصل إلـى (موسكو) مسـاء اليوم ، فـى مهمـة تفتيشية خاصة ، على السفارة البريطانية هنا .

انعقد حاجبا (جوديسكى) ، وهو يتساءل :

ـ وما المناسبة ؟!

هزّ (كارباكوف) كتفيه ، قائلاً :

ـ هذا أمر روتينى ، يحدث كل حين وآخر ، بحجة التفتيش ،

ولكنه فى الواقع ستار لمراجعة بعض أعمال المخابرات على أرضنا .

اعتدل (جوديسكى) ، يسأله :

- وما دام أمرًا روتينيًا ، فلماذا اعتبرتها أنباء مدهشة إذن ؟!

صمت (كارباكوف) بضع لحظات ، قبل أن يبتسم ، قائلاً :

- إنها أول مرة يرسلون نائب مدير المخابرات شخصيًا .

مطَّ (جوديسكى) شفتيه ، وهو يهزّ رأسه متفهمًا ، ثم أشعل واحدة من سجائره ، ذات الرائحة النفاذة القوية ، قبل أن يسأل ، فى شىء من الاهتمام ، حاول أن يغلفه بغلاف زائف من برودته التقليدية :

- أما زلت تصرّ على عدم إخبارى بهوية جاسوسنا ، فى مجلس قيادة المخابرات البريطانية ؟!

انعقد حاجبا (كارباكوف) وهو يشيح بوجهه فى صمت ، فنفث (جوديسكى) دخان سيجارته فى قوة ، متسائلاً :

- المهم أن تكونوا واثقين من ولائه .

صمت (كارباكوف) لحظة ، ثم لم يلبث أن قال :

- فى البداية كان مضطرًا فحسب ، وخاصة بعد أن وقَّع بعض الأوراق ، التى تشير إلى أنه كان يعمل لحسابنا ، طوال عام كامل ، وإيصالات تؤكد أنه كان يتقاضى الكثير منا ، مقابل ما يرسله من معلومات إلى مخابراتنا .. بل ولقد جعلوه يكتب بخطه عدة خطابات ، تحوى بعض ما لدينا من أسرارهم .. باختصار .. لقد غادر سجن (موسكو) ، قبيل شروق شمس اليوم التالى ، وقد تورَّط حتى النخاع .

اعتدل (جوديسكى) فى اهتمام ، متسائلاً :

- ثم ماذا ؟!

ابتسم (كارباكوف) ، قائلاً :

- كان شابًا نابهًا بحق ، ولقد اضطر إلى إرسال بعض المعلومات فى البداية ، وإلى مقابلة مندوبينا سرًا ، فى قلب (موسكو) ، طوال عام كامل ، خضع خلاله لبرنامج ذكى ، لتطوير تفكيره ، وإقناعه بعظمة وقوة النظام الشيوعى .

حاول (جوديسكى) أن يخفى ابتسامته الساخرة ، وهو يقول :

- وهل أفلح هذا ؟!

أومأ (كارباكوف) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ لابد أن تعلم أن رجالنا عباقرة فى هذا المضمار ، وأنهم يتعاملون مع مثل هذه الأمور بحرفية عالية جدًا ، وببراعة مدروسة ، وتحت إشراف خبراء نفسيين واجتماعيين ، ولقد تعاملوا مع الشاب بنظام محكم ودقيق ، وبعيد المدى أيضًا ، بحيث أصبح يؤمن تمامًا بأن الشيوعية هى أفضل نظام ، لكل شعوب الأرض .

غمغم (جوديسكى) ، فى مزيج من السخرية والازدراء :

ـ ياللسذاجة !

سأله (كارباكوف) :

ـ ماذا تقول ؟!

أشار (جوديسكى) بيده ، قائلاً :

ـ لاشىء .. أخبرنى يا (كارباكوف) ، متى بدأ التعامل معه فى وضوح ؟!

أجابه (كارباكوف) ، وهو يتراجع فى مقعده باسترخاء :

ـ فور تأكُّدهم من أنه قد اقتنع بالشيوعية ، وأصبح ينتمى

قلبيًا لنظامنا .. عندئذ فقط طلبوا منه التوقُّف عن نقل أخبار الأمريكيين ، والتركيز على كل المعلومات التى يمكنه الحصول عليها ، من البريطانيين أنفسهم .

سأله (جوديسكى) :

ـ أكان قد التحق أيامها بالمخابرات البريطانية ؟!

أومأ (كارباكوف) برأسه ، قائلاً :

ـ بالطبع ؛ ففى الفترة السابقة لالتحاقه بها ، وفور علمنا بترشيحه لها ، طلب منه رجالنا إيقاف كل نشاطه فورًا ، وعدم إرسال أية معلومات أو برقيات إليهم ، مهما بلغت أهميتها أو خطورتها ؛ وذلك حتى يتجاوز مرحلة الفحص والمراقبة ، التى تسبق انضمامه الرسمى .

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع فى جذل :

ـ ولقد اجتاز كل شىء بنجاح ، وأصبح أحد رجال المخابرات البريطانية ، ونظرًا لذكائه ونشاطه الجم ، ولما كنا نزوِّده به ، من خبرات ومعلومات ، أصبح يتولَّى ، بعد عامين فحسب ، مسئولية القسم السوفيتى ، فى المخابرات البريطانية ، ثم راح يتطوَّر ويترقَّى بسرعة مدهشة ، وراحت المعلومات ترد منه على نحو مذهل ، حتى صرنا وكأننا نجلس داخل المخابرات البريطانية نفسها ، حتى أصبح يحتلّ اليوم منصبًا رفيعًا فيها .

لوَّح (جوديسكى) بيده، وألقى سيجارته، قائلاً:

ـ ولكنك لن تخبرنى باسمه .. أليس كذلك ؟!

هزَّ (كارباكوف) رأسه فى حزم، مجيبًا:

ـ محال.

قالها قبل أن ينهض، ويغادر المكان كله، فمطَّ (جوديسكى) شفتيه، مغمغمًا:

ـ لا بأس أيها الوغد .. ما قلته الآن يكفينى.

وألقى نظرة على ساعته؛ ليرى كم تبقَّى له من الوقت، قبل أن يحين موعد انصرافه من المكان ..

فوفقًا لما لديه من معلومات، كان عليه أن يرسل برقية شفرية عاجلة، إلى الجهة التى يعمل لحسابها، مع كل ما حصل عليه من معلومات ..

إلى المخابرات البريطانية ..

مباشرة ..

* * *

لم يكد (تيم سيلبى) يهبط من طائرته، فى مطار (موسكو)، وسط البرد القارس، والجليد المنهمر فى غزارة، حتى التقط نفسًا عميقًا، من الهواء المثلَّج، وغمغم فى هدوء شديد:

ـ عظيم .. كل شىء يسير على ما يرام.

لم يكن يحمل سوى حقيبة واحدة، وضعها إلى جواره، وفرك كفيه ببعضهما، أو بمعنى أدق، فرك قفازيهما السميكين، وهو يتلفت وحده، بابتسامة هادئة واثقة كبيرة ..

ومن بعيد، لمحه سائق سيارة سوداء كبيرة، ذات زجاج داكن مزدوج الانعكاس، يسمح لمن داخلها برؤية كل ما بخارجها، دون أن يسمح بالعكس أبدًا. فقال فى اهتمام، للرجل الجالس فى المقعد الخلفى:

ـ أهذا هو ؟!

أومأ الجالس برأسه، مغمغمًا:

ـ نعم .. إنه هو.

ثم ربَّت على كتف السائق، مضيفًا فى حزم:

ـ اتجه إليه مباشرة.

نفذ السائق الأمر على الفور، واتجه نحو (سيلبى)

مباشرة وتوقَّف أمامه ، ففتح الجالس فى المقعد الخلفى الباب المجاور له ، وقال ، وهو يطلّ برأسه منه :

ـ هل ترغب فى الطيران إلى (موسكو) ؟!



أجابه (سيلبى) فى هدوء :

ـ هذا يتوقَّف على طول جناحى الطائر .

أفسح له الراكب مكانًا إلى جواره ، قائلاً :

ـ لن تجد ما يفوق جناحى الرخ .

ابتسم (سيلبى) وهو يتخذ مكانه إلى جواره ، قائلاً :

ـ ألنت المسئول عن الأمر ؟!

أجابه الراكب ، وهو يشير إلى السائق بالانطلاق :

ـ لقد شرفونى بهذه المهمة ..

وانطلقت السيارة ، والراكب يسترخى فى مقعده ، ويتطلَّع إلى (سيلبى) فى فضول واهتمام شديدين ..

ولم يكن ذلك الراكب سوى (كارباكوف) ..
رجل المخابرات السوفيتى (يورى كارباكوف) ..
بنفسه .

* * *

٨ ـ العميل السرى ..

● لم تكد البرقية السرية ، التى أرسلها رجل المخابرات السوفيتى (إيفان جوديسكى) ، تصل إلى جهاز المخابرات البريطانى ، الذى يعمل لحسابه ، حتى بدأ قسم الشفرة فى ترجمتها على الفور ..

وكما تحتم الأوامر الأخيرة ، تم إرسال الترجمة إلى مدير المخابرات شخصيًا ، والذى طالعها بمنتهى الاهتمام ، قبل أن يقول :

ـ عظيم .. صحيح أن عميلنا (جوديسكى) لم ينجح فى الحصول على اسم الجاسوس السوفيتى ، وسط مجلس قيادة جهازنا ، إلا أن ما أرسله من معلومات سيفيدنا حتمًا ، فى تحديد هويته .

ثم استدعى رئيس قسم المعلومات البديل على الفور ، وناوله نسخة من البرقية ، قائلاً بلهجة آمرة صارمة :

ـ أحضر كل ملفات مديرى الإدارات ، وأعضاء مجلس القيادة هنا ، وراجع كل بياناتهم ، على ما ورد فى هذه البرقية .. إننا نبحث عن شخص عمل فى سفارتنا فى (موسكو) ، فى

منتصف الستينات ، ثم التحق بالمخابرات هنا ، فى أواخر الستينات ، وأصبح مسئولاً عن القسم السوفيتى ، فى أوائل السبعينات ، ثم ترقى ليصبح أحد أعضاء مجلس القيادة فى الثمانينات .. افحص الملفات ، وراجع المعلومات والبيانات ، وامنحنى النتائج بأقصى سرعة ممكنة .

بدأ الرجل عمله على الفور ، فى حين غمغم مدير المخابرات فى أسف ، وهو يجرى اتصالاً فوريًا ، عبر الهاتف الساخن الخاص ، برئيس الوزراء :

ـ يا للخسارة ! ليت (سيلبى) لم يتعجّل تنفيذ خطته .. ما وصلنا الآن يجعلنا بغير حاجة حتمية إليها .

سمع صوت رئيس الوزراء على الجانب الآخر ، فور إتمامه عبارته ، فقال فى حماسة واضحة :

ـ سيادة رئيس الوزراء .. لقد وصلتنا بعض المعلومات من (موسكو) .

سأله رئيس الوزراء فى لهفة :

ـ هل أرسلها (سيلبى) ؟!

أجابه مدير المخابرات :

- بل أرسلها عميل لنا ، فى قلب المخابرات السوفيتية .. إنها لاتحوى اسم جاسوسهم بيننا ، ولكنها تحوى من المعلومات ، ما يكفينا لكشف أمره خلال ساعة على الأكثر من الآن .

قال رئيس الوزراء فى اهتمام :

- وماذا عن (سيلبى) وخطته ؟! لم يعد من المحتم أن يجازف بسلامته الآن ، « أليس كذلك ؟! »

أجابه مدير المخابرات فى سرعة :

- بلى يا سيادة رئيس الوزراء .. سأرسل برقية فورًا إلى سفارتنا فى (موسكو) ، أطلب منه فيها إيقاف كل شىء ، والعودة فورًا إلى (لندن) ، فلم تعد هناك ضرورة لـ ...

قاطعه فجأة صوت رئيس قسم المعلومات ، وهو يقول فى توتر :

- سيادة المدير .

التفت إليه المدير فى حدة ، وبنظرة صارمة قاسية ، ولكنه مد يده إليه بورقة واحدة ، قائلاً بكل توتره :

- أظن أنه من الضرورى أن تطالع هذا .

بدا الغضب على وجه المدير ، ولكن الرجل تابع فى إصرار :

- أعلم أنك تتحدث إلى السيد رئيس الوزراء ، ولكن هذا يحتم إطلاعك على هذا التقرير فورًا .

بدا القلق على وجه المدير ، وهو يلتقط التقرير ، فى حين سأله رئيس الوزراء ، الذى سمع ما قاله رئيس قسم المعلومات .

- هل توصَّل الرجل إلى هوية الجاسوس ؟!

سمع الرجل سؤال رئيس الوزراء بدوره ، فقال فى توتر بلغ أقصاه :

- لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من البحث ، فهناك رجل واحد ، فى مجلس القيادة كله ، يمكن أن تنطبق عليه هذه المعلومات .

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان مدير المخابرات يلقى نظرة على التقرير ، ثم تتسع عيناه عن آخرهما فى ذهول ، وهو يهتف :

- مستحيل !

سأله رئيس الوزراء فى قلق شديد :

- من هو يا رجل ؟! من ذلك الجاسوس ؟!

بذل مدير المخابرات جهدًا خرافيًا ؛ ليَخْرُجَ من حنجرته صوت متحشرج باهت ، وهو يقول :

ـ لن يمكنك أن تصدّق يا سيادة رئيس الوزراء .. لن تصدّق أبدًا من هو الجاسوس السوفيتى .

وكان على حق تمامًا ، فاسم الجاسوس كان بالفعل مفاجأة !

مفاجأة مذهلة !

★ ★ ★

« صديقنا العزيز (تيم سيلبى) »

هتف مدير المخابرات السوفيتية بالعبارة ، فى حرارة وترحاب شديدين ، وهو ينهض من خلف مكتبه ، ليصافح (سيلبى) فى حرارة ، جعلت هذا الأخير يبتسم ، قائلاً :

ـ خشيت لحظة أننا لن نلتقى ثانية أبدًا ، أيها الرفيق (مكسيم) .

أطلق (مكسيم) ضحكة ، ارتجّ معها جسده الضخم ، وهو يربّت على كتفه ، قائلاً فى مرح :

ـ أما أنا ، فبعد ربع قرن من التعاون ، أصبحت شديد الثقة ببراعتك وذكائك ، أيها الرفيق (سيلبى) .

ابتسم (سيلبى) ، وهو يجلس على مقعد قريب ، ويمدّ قدميه أمامه فى استرخاء ، قائلاً :

ـ كان من الممكن ألا أغادر (لندن) أبدًا ، لولا أن أقنعتهم بخطة وهمية لخداعكم ، فساعدونى على مغادرة (بريطانيا) كلها ، والقدوم إليكم ، تحت حمايتهم ورعايتهم .

ضحك مدير المخابرات السوفيتى مرة أخرى ، قبل أن يقول :

ـ ألم أقل لك : إنك بارع وذكى ؟!

تثاءب (سيلبى) ، قائلاً :

ـ المدير كان يثق بى ثقة مطلقة .

مال (مكسيم) إلى الأمام ، وهو يقول :

ـ هذا دليل آخر ، على البراعة والذكاء .

تطلّع إليه (سيلبى) بطرف عينيه ، قائلاً :

ـ تلميذك النجيب أيها الرفيق (مكسيم) .

أشار الرجل بيده ، وهو يقول مبتسمًا :

ـ التلميذ الذى تفوّق على أستاذه ، أيها الرفيق (سيلبى) .

تنهَّد (سيلبى) فى ارتياح ، وقال :

ـ مازلت أذكر تلك الظروف ، التى التقينا فيها لأوّل مرة ، فى منتصف الخمسيناتِ ، فى سجن (موسكو) .

هزّ الرجل كتفيه ، قائلاً :

ـ لابد أن تعترف الآن أنها كانت خطة بارعة .

ابتسم (سيلبى) ، قائلاً :

ـ لقد أدركت هذا ، بعد عام واحد ، من التحاقى بالمخابرات البريطانية .

غمز (مكسيم) بعينه ، قائلاً :

ـ بعد أن أصبحت محترفًا .

تثاءب (سيلبى) مرة أخرى ، وهو يسترخى فى مقعده أكثر ، قائلاً :

ـ كم أشعر بالرغبة فى الضحك ، عندما أتصوّر انفعالاتهم الآن ، بعد أن يكشفوا الحقيقة .. ولكن فليذهبوا إلى الجحيم .. لقد وصلت إلى وطنى الحقيقى الآن .

وكانت أقوى صفعة تلقتها المخابرات البريطانية ، فى تاريخها

كله ، حتى إن العالم كلـه قد تحدَّث عنها بانبهار وأسف ، فور أن أعلنت المخابرات السوفيتية أن (تيم سيلبى) قد طلب حق اللجوء إليها ، وتم منحه حق المواطنة ، ليصبح مواطنًا سوفيتيًّا ، يحمل وسامًا من الرئيس السوفيتى ؛ بعد أن كان نائبًا لمدير المخابرات البريطانية ..

و(تيم سيلبى) هذا ليس اسمه الحقيقى ، ولكنه يحمل الإيقاع نفسه ، ولقد أصبحت عمليته إحدى علامات تاريخ المخابرات ، بعد أن استقرّ فى الاتحاد السوفيتى ، وأعلن أنه سعيد بوجوده فى وطنه الحقيقى ، الذى يعتنق مبادئه وأفكاره ..

ولكن (سيلبى) كان مخطئًا تمامًا فى ظنه هذا .

فمهما قال أو فعل ، سيظل فى نظر البريطانيين والسوفيت مجرَّد بريطانى ، خان وطنه وأمته ، من أجل وطن آخر ..

ولقد تلقَّى هو نفسه صفعة قاسية ، مع سقوط الاتحاد السوفيتى ، وانهيار الشيوعية ، وتفتّت الكيان الكبير إلى عدة كيانات صغيرة ، لم يمنحه أحدها ربع الاهتمام ، الذى كان يحاط به ، فى الاتحاد السوفيتى القديم ..

وهكذا ، وعلى الرغم من كل ما فعله ، كُتِبَ على (تيم سيلبى) أن ينهى حياته باهتًا منسيًا ، فى قلب كيان منهار ..

وفى قلب العدو ، الذى ربح عدة جولات ، ثم حمل فى النهاية لقبًا بغيضًا ..

لقب الخاسر ..

إلى الأبد ..

* * *

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

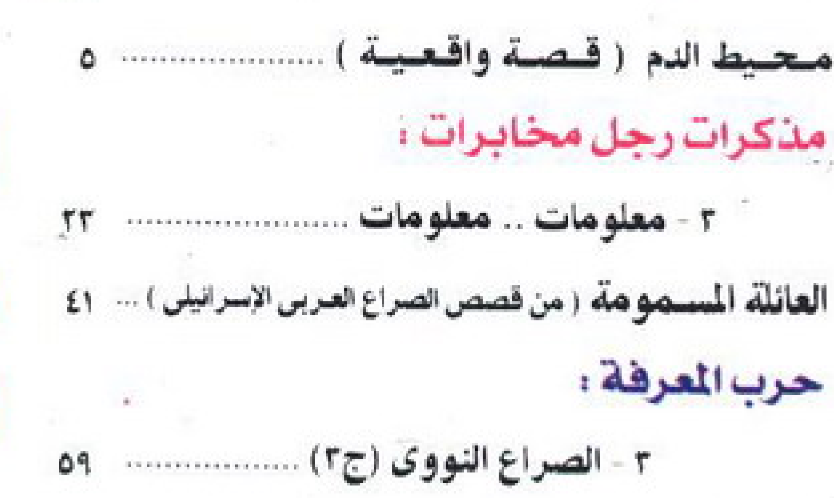
قلب العدو

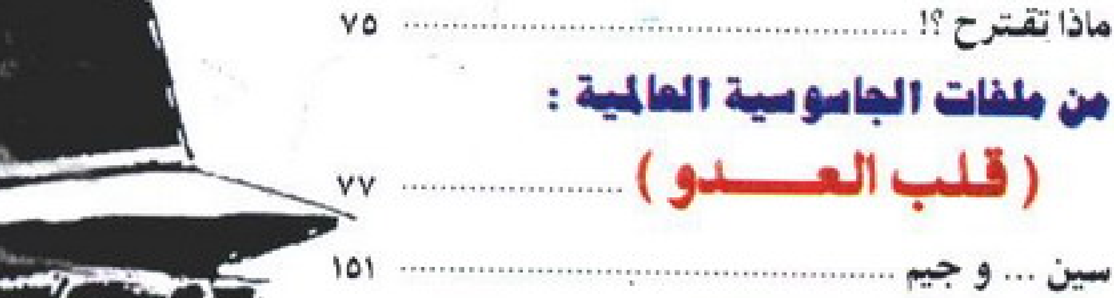
وموضوعات أخرى



د. نبيل فاروق

صراع العقول الذى يتفوق دوما على أعتى الأسلحة والمعدات







الثمن فى مصر ٣٠٠ ﻣ

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

